إلى القارئ

الشباب و الشابي

بقلم : البشير بن سلامة

لم أقصد من العنوان الرغبة فى الجناس وإنما ظهر لى ذلك بعد أن تم اختيار الموضوع .فتبينت لى اكثر من علاقة بين الشابى المنحدر من الشابية (ولا أعلم لماذا سميت بالشابية ولعلها صيغة عامية للجمع يطلق على سكان مكان ما وفى صورة الحال جماعة من الشابة) وبين الشباب . فلقد قال الشعر وهو شاب وتوفي وهو ما يزال شابا . وكان يتقد حماسا كشأن الشباب وكالنار إذ تشب . والشابى شاعر الحب والجمال وهو لم ينفك فى شعره يشببه تحسينا وتزيينا بذكر الحبيبة وكم تغنى بالشبابة وصاحبها الراعى وبالظلام حين يتفتح « شب الليل » وهو جنس زهر جميل من فصيلة الشبيات أزهاره تتفتح قبيل المغيب وبعيده .

ولست أعني بهذا المدخل ان الشابى مكتوب له أن يعيش هذه المعانى وأن يكون حظه من الحياة مرتبطا بعالم قريب من دنيا الشباب وهو الذى لم يعرفها كما عرفها انداده بل الذى اردت أن أتوقف عنده فى هذه العجالة هو موقف الشعراء الشبان من الشابى وهم الذين لم يكن لهم مهرب من تحديد وجودهم فى عالم الشعر من دون الرجوع الى ابى القاسم ودنياه الشعرية أكثر من غيره من الشعراء العرب العباقرة الذين عمروا القرن العشرين . ولهذا فان شعراءنا

الشبان وإن قلدوا جبران والسياب وشوقي وحافظ وعبد الصبور وانكروهم فان عيونهم لم تفتا تتجه ولو بشق النظر الى أبي القاسم الشابي .

هذا الموقف أو هذا الوضع هو الذي اردت تحليلـه وتمحيصه واستقصاء حالاته واستخلاص العبرة من أطواره وتقلباته علما بان تطور الشعر العربي هو مرتبط بما تفضي اليه التيارات الشعرية العاملة على الحصول على إضافة ما مهما كانت هذه الاضافة .

والغريب أن بعض الشعراء في تونس كادوا يقتنعون بما اقتنع به الكثير من النقاد والادباء في المشرق العربي وهو أن الشابي أصبح بمثابة الاسطورة وأنه ليس بعده ولا قبله شاعر يستحق الذكر في تونس وهو ما أوجـد في كثير من الشعراء نوعا من الاحباط زاد على ما كان أحدثه في النفوس أثنـاء الفترة الاستعمارية عامل التغريب والتشريق . فانكفاوا على انفسهم وانقطعوا عن قول الشعر الا في المناسبات القليلة بينما لو واصلوا شحـذ قـرائحهم ومرسوا أداة خلقهم على الانتاج والابداع لكان ذلك حافزا للشعـراء الشبـان لاقتفاء أثرهم ولأوجدوا مناخا ملائما وهو ما فتئت تحث عليه أسرة « الفكر » منذ تاسيسها .

هذا فريق أول من الشعراء اما الفريق الثاني فهو الذي آمن بنفسه وبشعره ولكنه اعتقد أن الشابي حاجز في طريق إثبات وجوده في الساحة الادبية وأن أسطورته سدت عليه الباب الموصل الى اشعاعه في المشرق وأن صوت الشابي القوي والذي لم يفهم الكثيرون السـر في وصوله الى الشرق العـربي هـو الذي صم آذان المشارقة على سماع غيره وجعلهم يتشوفون الى شابي آخر من فصيلتـه .

اما الفريق الثالث فهو الذي حزم أمره واعتقـد أن الشابي لم يكن شيئا كبيرا وأنه في الواقع انتهى أمره دون النضج ويجب إما تجاوزه او مواصلة تجربته الى أبعد الحدود وهؤلاء هم الذين حافظوا على إيقاع القصيدة العربية

وقاموا بمحاولات لتطويرها شكلا ومضمونا أو هم الذين حاولوا تجاوز تجربة الشابي باعتباره يمثل الماضي الذي يتعين الاستفادة منه وهم يمثلون الحاضر فياخذون الجانب المضيء من شعره ويتركون ما لم يصل الى الدرجة القصوى من الجودة ويقفون ضد ما يسمونه بالتهميش الشعري والنسف باسم التفجير المضمـوني .

وهناك فريق آخر اعتبر أنه من الواجب الدخول في جدل فني مع الشابي لا لانه في ذاته منهج فني ومصدر معرفي بل لانه تكمن فيه فكـرة محـركة للعمل الفني وهؤلاء هم الذين حاولوا الارتباط بالواقع الفني الذي ترعرع فيه الشابي انطلاقا من الواقع الاجتماعي وتشبثا بالمقومات الاساسية للمجتمع التونسي وتمسكا بخصائصه التي منها يمكن التفاعل مع التيارات الشعرية الاخرى الموجودة في المشرق العربي والتي تكون الارضية المشتـركة لكـل عمل فني شعري أصيل . وهؤلاء لم يلجأوا الى افتعال القطيعة مع الشابي ولم يعملوا بالقولة المشهورة « خالف تعرف » .

أما الفريق الذي ظهر بقوة وغطى الساحة الشعرية ضجيجا فـذاك الذي تنكر للشابي بل الغاه تماما وسمى عمله تجريبيا واعتبر أنه يجب الخروج عن المسالك الشعرية المطروقة وهو في الواقع يجهل مقومات الشعـر العـربي وايقاعاته وينطلق من تجارب أجنبية ويتمسك بعبارات مثل «التفجير اللغوي والشعري» ومثل «التجاوز في الشعر» ولم يعرف أن ذلك لا يصح الا اذا كان متشبعا بالايقاعات الشعرية العربية وأنه مثلما أن للغة عبقريتها وعبقريتها كامنة في نحوها فان للشعر العربي عبقرية وعبقريته كامنة في ايقاعاته .

ولهذا فليس لاي كان أن يدعي الاضافة للشعر العربي بالتجاوز أو غيره اذا هو لم يقدر في يوم من الايام على صياغة ما في عمود الشعر .

وعندما أقول ايقاعات لا أعني البحور والاوزان الخليلية لان هذه انما هي مقاييس أرادت أن تضبط هذه الايقاعات ولكن الايقاعات الحقيقيـة هي في

نفوس الشعراء ولم يحصر الخليل فى الواقع الا بعضها الذى كان متداولا فى ذلك الزمان وهذه هى القضية الكبرى فى الواقع للشعر العربى فى عصرنا الحاضر والتى أمكن للشابى بعبقريته أن يحلها اذ هو حافظ على ايقاعات الشعر العربى الاساسية وكرع من ايقاعات الحياة العصرية بالاندماج فى شعبه والتفاعل مع لهجته فطعم بها لغته الشعرية فاتت متلائمة مع ما ينتظره الجمهور المتشوق للادب لانه كما يقول الفيلسوف الفرنسى « آلان » : « إن ما يختص به الشاعر أولا هو أن يكون قويا بايقاعه » .

هذا اذن هو مشكل الشعر العربى فى الحاضر وهو أنه لم نقدر الى الآن على حصر ايقاعاته أو كما لم أفتا أقول: على ضبط الوحدة الايقاعية فيه وهى الوحدة التى تتكرر وتتعدد بنسق ما اذ التفعيلة لا يمكن أن تكون وحدة ما بل هى تجزئة اعتباطية للبيت ولم يسلم الشعر العربى من الضياع - وهذا من حسن حظنا - إلا لان هناك من الشعراء من لا يزالون يحملون فى نفوسهم الايقاعات الاصيلة والاساسية للشعر العربى وهم أيضا القادرون على التطوير انطلاقا من ذلك والشابى كان منهم .

فما على الشباب من الشعراء إلا أن يتطبعوا قبل كل شىء بايقاعات الشعر العربى الاصيلة ويتركوا التجريب لانه لا يمثل خشبة النجاة فى بحر الشعر الطامى وعليهم أن يتمرسوا على ما نجح فيه غيرهم من الشعراء ثم اذا هم أحسوا بانه لم يغب عنهم ايقاع واحد من الشعر العربى وخزنوه فى نفوسهم أن يقدموا على التجاوز والتطور والى ما الى ذلك .

ولكن يبقى المشكل قائما بالنسبة الى الشعر العربى الا وهو ضبط الوحدة الايقاعية بصورة أحكم أو اذا أردنا أن نقول : هل من خليل جديد قادر على إيجاد مقاييس جديدة وموازين اشمل وادق ؟.

البشير بن سلامة

شاعر الحياة

شعر : محمد الشعبوني

يا توزر الحسن والأعياد تنتظم
وذكريات الوفا في القلب من قدم
وفي الحياة لأهل الفنّ منطلق
والشعر في جنة الإلهام ملحمة
والقلب في نشوة الإنشاد منشرح
وروائع الله جلت في طبيعتنا

وندوة الشعر في الواحات تلتئم
ظمأى تحن وفيض الدمع منسجم
وفي مجال الهوى الأشواق تزدحم
ينمو بها الحرف تعبيراً ويلتحم
يتلو أغانيه والغاب يبتسم
تهفو إلى عيدنا بالخير تتسم

* * *

ها نحن في الملتقى وصل ومرحمة
ما أطيب العيش والواحات في ظلل
ينساب في رقة الآصال منتشياً
يشدو على وتر ينساب في سمر
سرب الحمام تغنى عند باسقة
وجه الطبيعة لا تخفى مفاتنه
والشعر في لحظة الإبداع أمتعنا

وحولنا هالة تسمو بها القيم
يسري النسيم بها يصفو به النغم !
كأنما طيفه عبر اللقا حُلُم
يبقى إلى سحر .. هل غيرها النِّعَم ؟
والماء من تحتها ، في الماء ترتسم
وذا الأصيل كلون الظل مُحتشم
والشاعر المفتدى في روضه علم

هلاّ سمعتم له روحـًا تُحـاورنا   نَشْوَى تَرِفّ للقيانا وتغتنم ؟

* * *

للمهرجان أتينا والهوى قـدرٌ   والعمر يسبقنا يطوي ويلتهم
من حولنا شاعر أوفى لـذمّته   لم يثنه الظلم والارهاقُ والسقمُ
قد قال للشعب يذكي من إرادته   والأهل في حيرة والجفن مضطرمُ
والليل ترهقنا أناتُ ظلمته   والشعبُ بين لصوص الليل يُقتسمُ :
قم أيها الشعب ، قم يخضعْ لنا قدر   إن شئت تحيا فأين البذل والشمم !؟
إرادة القدر العُليا إرادتنا   تقول : لبيك والنيران تحتدم
(إرادة الشعب) أنفاس يرددها   حب الحياة ، به نقوى ونعتزم

* * *

يا زائرا (توزرا) في عيد شاعرها   ظمآن للشعر لا زلّتْ بك القدم
شعر الطبيعة وحي فاض منبعه   ومنبع الشعر دوما ليس ينفطم
و(جنة الشعر) ما ضاعت لصاحبها   وها هي اليوم عهدٌ ليس ينفصم
(أرض الجريد) رسالاتٌ ولا ملك   والشعر يغمرها والفكر والقلم
يا أخوة ساقهم للوصل تضحية   لم يثنهم رهقٌ في السير أو ألم
أنتم هنا الناس يا أهلاً بإخوتنا   أنتم لنا – وبكم منا سوًا – رحِمُ
والشعر يغزو قلوب الناس في بلد   شمّ النسيم به الآلام تنحسم
والحب يسري من الأعماق منطلقا   حبًا يغذيه وصلٌ دائمٌ .. ودَمُ
واشرح هواك فشرع الحب متسع   وأنت حلّ هنا والمنتدى حرم
لا قيد للحرف ، ان الحرف منقذنا   ومن يلوذ بحرف كيف ينهزم ؟
دنيا الجمال قد امتدت مفاتنها   مُوقّع نهدُها بالصدر يرتطم

والشعر لا تنتهي في الكون نغمته   في عقده جوهر ، في روحه قيم
يحيا الضمير بشعرٍ أنت قائله   وجوهر الشعر صافٍ ليس ينقسم

★ ★ ★

يا شاعر عزّ في الدنيا له شبه   وقد تباهتْ - بما غَنَّيْتَهُ - الأمَم
خلدت تونسنا في الكون في شرفٍ   وصغتها دُرَرًا والبعض ما فهموا
حتى إذا استيقظوا صاح الزمان بهم: شدوا الرحال لذاك الروض واستلموا
فقوة (العبقريٍّ) اليوم قد ظهرتْ   والنصر تم بإذن الله ، والقسم

★ ★ ★

هذا أبو القاسم الساري على عجل   لساحة الخلد لا ضعف ولا ندم
يا ليتنا قد أجبنا صوت دعوته   والحر من لنداء الحق يلتزم
من بعد خمسين غنى الكون عن ثقة   (شعرَ الحياة) وقالوا : نعم ذا الكلم!
وأدرك الناس ما للشعر من أثر   هو الحياة ، هو الوجدان ، والحكم
والضادُ منه لسانٌ غير ذي عوج   وذاك سرّ سُمُوّ الشعر لو علَموا

أكتوبر 1984

محمد الشعبوني

في وداع الشاعر: "حسن كامل الصيرفي"

بقلم : وديع فلسطين

آكاد أقول مع شاعرنا الراحل العظيم حسن كامل الصيرفى :

ثم يبق لى فى طريق العمر أحباب   خلا الطريق ، وأحباب الرؤى غابوا
كانوا خيالا ، وكان العيش حلم كرى   مضى به قدر للعمر نهاب

فقد انضم الصيرفى الى أحباب الرؤى الغائبين ، وجاء دوره ليمضى به قدر للعمر نهاب ، وتركنا نحن اصفياء عمره ورفاق طريقه لوحشة الحياة ، نفتقد فيها واحته الظليلة كلما اشتد علينا الهجير ، ونبكى المروءات والفضائل والشاعرية والروح الشفيفة والعلم والوفاء وجماع المكرمات ، وكان الله فى عون أسرته المكلومة التى غادرها هذا العميد العظيم فخلف لها حزنا طاغيا لا سلوان فيه .

أربعون عاما بل أكثر عرفت فيها أخا العمر وصفيه حسن كامل الصيرفى . كانت لغة الحوار بيننا فى طول هذه السنين وعرضها هى لغة الحب والصفاء . ولا أذكر أن شائبة صغرت أو كبرت عكرت صفو هذه المودات العميقة ، ولم يسمعنى الصيرفى حتى كلمة عتاب رقيقة ان قصرت فى السؤال عنه ، لان أخوتنا كانت فوق المظان ، ولان طريقنا وان اختلفت شعابه يلتقى على المحبة الانسانية الصحيحة .

فما اغبننى اذ فقدت هذا الولى الحميم ، واذ استحال هذا الانسان النبيل الحى الخدوم الى طيف ذكرى فى لوحة المخيلة ، فان عزيتم أسرة الصيرفى الكبير على هذا الرزء الذى أثكل أفئدتها ، فانى بعزائكم أيضا خليق، لأن القدر النهاب قد سلبنى أربعين عاما من أعمق وانقى واصدق واوفى واطيب رفقة

للقلب فينا لفجيعتنا جميعا ! في الصيرفي الشاعر والصيرفي الاديب والصيرفي البحاثة المحقق ومن قبل ومن بعد في الصيرفي الانسان .

وانه لمما يضاعف الحزن على الصيرفي أن حياته خلت من كل أسباب التكريم، على ضخامة الاثر الذى تركه فى الضاد شعرا ونثرا ودراسة واستقصاء وتحقيقا ابحث عن مكان الصيرفى فى مجامع اللغة العربية ، فلن تهتدى الا الى مكان لا فى مصر ، بل فى دمشق حيث انتخب عضوا مراسلا تقديرا لادبه وشخصه وتاريخه المضمخ بأمجاد الضاد .

نقب عن اسم الصيرفى بين الفائزين بجائزة الدولة التقديرية ، فلن تجده الا فى مرة يتيمة ، رشح فيها للجائزة ، ولكن الجائزة تخطته .

ابحث عنه فى لجنة الشعر فى تشكيلها الجديد ، فلن تجده بين اعضائها بأية صفة ، لأن دنيا الشعر باتت تجافى أعاظم الشعراء المعاصرين .

قلب صفحات الصحف بحثا عن حفلة تكريم واحدة أقيمت للشاعر الصيرفى فى مناسبة صدور ديوان من دواوينه أو كتاب من كتب التراث التى حققها، فلن تجد خبرا واحدا لحفل تكريم يتيم . أما حفلات التكريم التى أقيمت للصيرفى فكانت خارج مصر ، عندما شارك فى مهرجانات أدبية أو شعرية فى أقطار الضاد المختلفة .

ابحث عن كتاب واحد عقد على الصيرفى لدراسة حياته وشعره ، وما أغناها حياة وما أعظمه شعرا ! فلن تجد هذا الكتاب فى مصر ، وقد تجده فى خارج مصر .

بل ان هذا الشاعر الفرد هدد ذات يوم باحراق دواوين شعره المخطوطة العشرة بعدما أعياه الجهد فى العثور على ناشر لها . ولم ينقذ دواوينه من النار والكبريت الا شخصية نبيلة رتبت امر نشر بعضها ، ومات محسورا على الدواوين التى لما تنشر .

وعندما تصدى الصيرفى لتحقيق ثلاثة من الدواوين الضخام ، هى للشعراء المتلمس الضبعى وعمرو بن قميئة والمثقب العبدى ، لم يجد لهذه الكتب ناشرا، لولا أريحية معهد المخطوطات التابع للجامعة العربية ، مما عرض مدير المعهد للمساءلة لمنحه احتكارا للصيرفى فى مطبوعات المعهد ، فكان دفاعه أن الصيرفى

بتحقيقاته هذه قد أوفى علـى الغاية فى أداء رسالة المعهد ، وهـو بكـل الثنـاء والتمجيد قمين . فخرس اللائمون .

أفلا يدل هذا كله على أن فى مجتمعنا الادبى « حاجة غلط » ؟

فكيف يعيش الصيرفى هذه الحياة العريضة الطويلة فى خدمة الأدب،ويكتب فى « العصور » لاسماعيل مظهر وفى « أبولـو » لأحمد زكى أبى شادى وفى «المقتطف» لفؤاد صروف ومن قبله يعقوب صروف ، وفى «المجلة» وفى «الكتاب العربى » وغيرها وغيرها ؟ وكيف ينفق من عرقه وكده وجهده وعبقريته وذات نفسه فى سبيل رفعة الادب زمانا أربى على خمسين عاما ؟ وكيـف تتـرامى شهرته الى ديار المهاجر والى أقطار العروبة ومعاهد المستشرقين ؟ ومـع ذلك تضن عليه مصر بأى لون من ألوان التكريم ، وحتى جنازته غابـت عنها دولتنا الادبية الرسمية !!

ان هذه الامثولة المجسمة من الجحود لتفرض علينا أن ننادى بأعلى صوت بضرورة تكريم الادباء والشعراء والخلاقين الموهوبين فىحياتهمحتىيستشعروا عرفان الوطن لما قدموه من سخى الخدمات لاعلاء شأنه والنهوض بثقافته وذوقه وتخليد ذكره . أما وقد ذهب الصيرفى فى طريق الخالدين يجتر مرارته ، فـلا أقل من أن تتنادى هيئات الثقافة الى اعادة نشر كل تراثه ، وان توجه الجامعات طلاب دراساتها العليا لعقد الاطروحات الجامعية على شعره وحياته، وان تخصص المجلات الادبية والصفحات الادبية فى الصحف فصولا مسهبة لدراسة العطاء الممتاز الذى قدمه شاعرنا العظيم الصيرفى لدنيانا المفكرة .

وانى لحزين عـلى مستقبل الشعر بعد الصيرفى ، لأنه كان مـن الاصوات القليلة الباقية التى تغرد فتطرب ، وتصوغ حسان القوافى فترقص القلوب .

فواحسرتاه على الشاعر ! وعلى الشعر من بعده !

وديـع فلسطيـن
(القـاهرة)

شاعر الخضراء أبو القاسم الشابي

شعر: عامر محمد بحيري

قالوا : قديم الهوى والشوق لم يزلِ ... فقلت : فلنبتدىءْ ، ياشعر ، بالغزلِ
ولنذكر الحبّ في أيام بهجته ... وصدقه ، وهو يعطي أكرمَ المُثُل
في روضة من رياض الخلد صادقةٍ ... أرست على الأرض بين السهل والجبل
الماء يجري تَرنّمًا في مساربها ... والطير تنشد في أغصانها الهُدُل
وفي المراعي من القطعان أخيلةٌ ... من وثبة الظبي ، أومن رقصة الحمل
يظل فيها خيال الشعر منطلقا ... مستوحيا لوحة الرسام في جذل !

* * *

من لي بأيام لهو كنت أصرفها ... خلوًا من الهمّ ! مملوءًا من الأمل !
الزهر يبدي حياءً في براعمه ... والورد يضحك في بستانه الخضل
قطفت زهر الأماني في خمائله ... وما نسيت حقوقا للعلى قبلي !

* * *

ذكرت عهد أبولُّو .. وهي مدرسة ... سعدت بالقرب من روادها الأُوَل !
الريح تدفع منهلّ الغمام لها ... والسيل يُقبل دفاعا من السُّبل
فللشيوخ جهودٌ في تطلعهم ... نحو الإمارة ، بعد الحادثِ الجلل
وللشباب طموح في تقدمه ... مهما تعثّر .. بين السعي والرمل ..
فكان أجمل ما نالت له طربًا ... نفسي ، وهشت إلى الألفاظ والجمل

شعر من الناضر الرنّان منبتـــــهُ ... كالورد في الخد أو كالحسن في المقل
حضنُ الطبيعة في التطريز منسجـــه ... فما لديه سوى التجويد من شغل
أوحت به فرحة للنفس غلّفهـــــا ... ظل من الحزن أو طيف من الملل
ونظرة في خفايا الكون ثاقبـــــة ... لأخضر العود .. يبدي رأي مكتهل

* * *

عرج على تونس الخضراء ملتمسًا ... طريق جمع بروح الشعر محتفل
وميل إلى توزر ذات الجريد .. إذا ... تعجل الركب أو ساروا على مَهَل (1)
وانظر لأعلى سماها هل ترى أثرًا ... لكوكب في زوايا الكون مشتعل
هذا أبو القاسم الشابيُّ ، يرفعـــه ... فوق الخلافات والأهواء والجدل
بيت من الشعر فردٌ ، لا نظير لـه ... ألقى به غاضبا في أوجه الدّول
إني لأشهد ما من ثورة نجمـــت ... إلا استفادت به في القول والعمل
كأنـه بعد طول النوم قــارعـــة ... تخلص الشعب من عجز ومن كسل
إذا أراد حيـاةً راح يسلمـــــه ... إلى جهاد مع الأقدار متصــل
ألفاظه حكمة للطفــل يحفظهـــا ... وسرّه فى ضمير الثائر البطـل

* * *

ثلاثة من شباب الشعر قد رحلوا ... قبل الأوان ، بذكر غير مرتحل (2)
كانوا نجوما وكان الدهر يدفعهم ... ليصبحوا في القوافي مضرب المثل
لهم على مفرق النيلين ، أو تونســا ... أو توزر .. نسمات العارض الهطل
جاءوا على موعد ، عاشوا على ثقة ... مالوا إلى مغرب ، ساروا على عجل
وكلهم حملوا الآلام مصطبـــرا ... والداء في عصب يسرى وفي عضل

(1) توزر الجريد ، بلدة الشابي بتونس .

(2) هم التيجاني في السودان ، والهمشري في مصر ، والشابي في تونس .

فلم يهن عزْمهم يوما ولا ضعفوا | عن حمل عبء حياة غير محتمل
الا الخيال ، فقد هاموا به شغفا | فلم يبالوا بشيء آخر الأجل !

* * *

سقيا لتونس أحيت ذكر شاعرها | وكرّمت مصر وفد السادة الفُضُل
ما ضرّني أنني خلّفت دونهم | روحي تطوف وجسمي غيرُ منتقل
سحابة الوحي تسقى حيثما ذهبت | روض الخيال وليس الغمر كالوشل
فقيمة الشعر ترديد الزمان له | في غفوة الطفل أو في حكمة الرجل
الشعر وحيٌ من الرحمان أنزله | على عباقرة الفصحى من الأزل
لولا مخالسة الشيطان بينهم | كادوا يكونون في الدنيا من الرسل

عامر محمد بحيرى

(القاهرة)

الشابي ناثراً .. دراسة مذكراته محتوى وأسلوبا

بقلم : الحبيب الشاوش

ان الباحث الدارس الـذى يطالع « مذكرات الشابي » بشيء من التمعن والتروى يلاحظ أنها جديرة بأن تعتبر وثيقة أساسية هامة لاستجلاء جوانب لا يستهان بها من حياة أبي القاسم الشابي وشخصيته وأخلاقه وارائه واهم القضايا الادبية والفكرية التى كانت تسترعى انتباهه وتستقطب عنايته . وقد أخترت أن أدرس الشابي الناثر خاصة وان أغلب الدراسات الـتى ظهرت في شأنه تركزت عـلى « الشابي الشاعر » ، بما في ذلك الدراسات المسجلة في ندوتنا هذه، فسعيت اذن أن أسد ثغرة في دراسة تراث الشابي وأساهم بنفس المناسبة فى استكشاف نواح وجوانب من حياته الشخصية والادبية والفكرية اعتمادا على شواهد مستمدة مـن تصريحاته الذاتيـة وان شئت قلت مـن « اعترافاته » الشخصية التى تضمنتها مذكراته أو يومياته عـلى قلتها وضيق نطاقها ، اذ لم تمتد على أكثر من اثنين وعشرين يوما ، منها عشرون فى شهر جانفى واثنان فى شهر فيفرى من عام 1930، أى عندما كان أبو القاسم قد تجاوز العشرين من عمره بقليـل وقد وقعت – بتوزر – بمعرض المؤلفـات الخاصـة بالشابي على دراسة بعنوان « الشابي من خلال يومياته » للمرحوم محمد فريد غازى ، وتصفحتها بعجالة ولاحظت أن الطريقة التى اتبعها صاحبها تختلف اختلافا جوهريا عن المنهج الذى توخيته – شخصيا – فى درس مذكرات الشابي معتبرا اياها وثيقة نفيسة هامة لدرس حياة مؤلفها ولمزيد الاحاطة بملامح شخصيته الفذة والوقوف على مميزات عبقريته الذاتية ، فضـلا عن أخلاقه وآرائه والقضايا الادبية والفكرية التى شغلت باله . فهى أحسن شاهد أو هى شواهـد بليغـة صريحة على صحة ما يمكن أن يقدمه الدارس من بيانات جديدة أو دقيقة وطريفة بشأن تلك الجوانب والملامح والمميزات لحياة أبى القاسم وشخصيته وعبقريته .

ولئن اقتصرت على « المذكرات » دون « الرسائل » فقد اعتمدت ذلك ، لاعتباري الاولى (أى «المذكرات») أقرب الى الموضوعية والتجرد ، من الثانية (أى « الرسائل ») التى لا تخلو عادة من مجاملة ومداراة بين الأصدقاء . .

وقد ركزت دراستى هذه على المحاور التالية :

1) **حياة الشابى .**

2) **شخصيته ومميزاته الاخلاقية .**

3) **آراؤه .**

4) **أهم القضايا التى شغلت باله .**

5) **اسلوبه وخصائصه .**

وقد اعتمدت الطبعة الثانية « لمذكرات الشابى » ، وقد نشرتها فى ماى 1976 الدار التونسية للنشر ، فى ثمان وسبعين صفحة . ولنستعرض الآن أهم ما رأينا أن نركز عليه هذه الدراسة من أهم المحاور واولها .

1 ـ حياة الشابى :

لا يجب أن تترقبوا منى دراسة كاملة لترجمة الشابى وقد سبق الى وضعها كل من شقيقيه الاكبر والاصغر الاستاذين الامين الشابى سنة 1955 فى طالع كتاب « أغانى الحياة » ، وعبد الحميد الشابى فى النشرية التى أعدتها ولاية توزر بمناسبة هذه الذكرى . . وانما أعيد التذكير فاذكر ان درس هذا المحور يقتصر ـ مع أن المقام هنا لا يسمح باكثر من ذلك ـ على ما جاء على لسان الشابى فى مذكراته وعلى ذلك دون سواه ، وكذلك الشأن بالنسبة الى كل المحاور الاخرى .

ففيما يخص حياته ، أطلعنا أبو القاسم أنه كان فى مستهل سنة 1930 ـ بالسنة الثانية من مدرسة الحقوق التونسية وذكر لنا أسماء الزملاء أو الاصدقاء الذين لازمهم وهم مصطفى خريف ، والمهيدى وأبو الحسن بن شعبان، وابراهيم بورقعة ومحمد الحليوى ، الى جانب زين العابدين السنوسى وحمودة بوسن (أمين مال «قدماء الصادقية») ، كما أطلعنا على التربص الذى قضاه بالعدلية وحسن المعاملة التى لقيها من أستاذه (محمد المالقى) الذى كان له نصيرا ، ينوه باسمه فى دروسه وبين رفاقه ، ويكيل له (على حد تعبير ابى القاسم

نفسه) أوصاف المدح والاطراء حتى يخجله .. كما ذكر لنا أكثر من مرة ـ أحد أساتذته الفرنسيين في الحقوق وهو الاستاذ « **لا موت** » وبخصوص علاقاته الاجتماعية واتصالاته الشخصية يحدثنا عن زيارة أداها ـ صحبة نسيب له ـ للوزير الاكبر في شأن خاص به ، وكان لوالده صديقا حميما منذ عهد الدراسة ، وعما لقيه لديه من حسن القبول ودماثة الخلق وعما دار من حديث طويل معه تناول كثيرا من الشؤون من بينها « سيرة أهل الزمان ، وكيف انهم لا يحبون الا المظالم والدناءة ، متعرضا الى ما قاساه والده من مظالمهم جـزاء وقوفه عـند حدود العدالة وتصلبه في وجوه العتاة المتجبرين (ص 66) .

2 ـ شخصيته ومميزاته الخلقية :

كانت للشابي شخصية قوية ، أبية ثائرة بقدر ما له من حساسية مرهفة : تجعله يثور على ما في الحياة من سخف : « وهل في الحياة غير السخف » (من قوله : ص 12) « فكل واحد من أبناء الانسان يجر قردا أو قـردة في مسالـك الحياة الوعرة .. فواحد من سخافاته وادعاءاته ، وواحد من غروره وكبريائه ، وواحد من دناءة الطبع وخساسة النفس وواحد من اقفار الذمة وخراب الضمير، الى كثير غير ذلك من انواع القردة المعنوية التي يجرها الناس وهم لا يشعرون!! (ص 43) .

كان الشابي أبيا ، عصبي المزاج : « ان أبغض شيء الى هو أن أبقى الى جانب الرئيس الذي ربما لا تلائم نفسه نفسي ، ولا توافق أخلاقه طباعي ، ربما كان متكبرا يحب السيطرة والعنف ، وأنا رجل عصبي لا أحتمل الذل ، ولا أستطيع أن أخمد غضبي (ويردف قائلا في شيء من التهكم) : « فتنجلي الثورة عن شيء جميل جدا ..! الله أدرى بنتائجه ..! » (ص 55) . ولقد تشتد بالشابي سورة الغضب لتبلغ به حد القسوة ، من ذلك مثلا معاملته لابن عم له صغير كلفه بتسخين السحور على البابور ، واذ هو لم يجد البابور لقي منه الوانا من السب والشتم ولم ينج من ذلك أخو الخطيبة « .. ثم اندفعت عليه ضربا وشتما في ثورة الغضب العنيف ثم أفاق أخو الخطيبة ، فأعطيته حقه من الشتم والتقريع » (ص ص 76 ـ 77) .

● **وطنيتــه** : تجلت عنده بمناسبة الحديث عن الاحتفال المائوي باحتلال الجزائر الذي كانت فرنسا تستعد لاقامته وكانـت بعض الفـرق التمثيليـة التونسية تتسابق الى تقديم رغباتها للمشاركة « في عيد المظالم الاستعمارية » ، وبخصوص الحديث عن موظفي ذلك العصر بل عن طائفة منهم : « **لـم نعـرف عنها الا انها اشباح خشبية في موكب الاستعمار العظيم** » (ص 24) .

● **قوة شخصيته** : كان الشابي يكره المناصب وبالاخص المناصب الشرعية وكثيرا ما كان يقول له أقاربه وأنسباؤه : « ان لك من معارف أبيك وسمعته الحسنة ، وصيته البعيد وشهرة اسمك ، ضمانا لاسترجاع منصب أبيك اليك لو تسعى .. » فيرد عليهم بقوله : « وكأنهم يحسبون أن المناصب هي كل شيء في هذا العالم وأن منصب القضاء سيدها .. أنا شاعر والشاعر يجب أن يكون حرا كالطائر في الغاب ، والزهرة في الحقل والموجة في البحار ، وفي المناصب ، « والشرعية بالاخص » خنق لروح النفس وقضاء على أغاني القلب ، واجهاز على راحة الضمير .. » « وللشاعر مذاهب في الحياة تخالف قليلا أو كثيرا مذاهب الناس فيها . وفي نفسي شيء من الشذوذ والغرابة أحس أنا به حين أكون بين الناس ٠ يجعلني أتبع سنننا ورسوما تحبها نفسي وربما لا يحبها الناس .. أنا شاعر ، والشاعر عبد نفسه ، وعبد ما توحي اليه الحياة ، لا ما يوحي اليه البشر » (ص ص64 — 65) .

● **حساسيته : شعوره بالغربة في هذه الحياة** : « الناس لا يفهمون ما يختلج في نفس الشاعر من عواطف ، لا يفهمون لغة قلبه ولا يفقهون أغاني روحه .. »

« ادركت أنني غريب بين أبناء بلادي .. انني طائر غريب بين قوم لا يفهمون كلمة واحدة من لغة نفسه الجميلة .. أيقنت أنني بلبل سماوي قذفت به يد الالوهية في جحيم الحياة .. وتلك هي مأساة قلبي الدامية » .

● **وفاؤه : لأبيه ولاصدقائه الاموات فضلا عن الأحياء** : وكثيرا ما يذكرهم ويتخيلهم : « ها انا أنظر ، فاذا أصحابه المتوفون يعودون الى الحياة ثانية كأجل وأجمل ما عرفتهم أول مرة .. »

ويذكر أباه في شيء من اللوعة والحسرة : « ثم ها هو أبي ينظر الى بوجهه الباسم الضحوك ، ومن عينيه تفيض عواطف الابوة الراحمة الحنون.. ثم ها أنا أنظر فلا أجد شيئا مما رأيت ، لقد ذهبوا كلهم الى عالم الموت البعيد .. » .

● **تعلقه بالطبيعة** : واذ هو فقدهم الى الابد، نراه يهرع الى الطبيعة، ليجلس منفردا على ربوة صغيرة تتصل بتلال كثيرة ، يفكر بأحلام الحياة، وهو يتحاشى محاذرا أن يقطف زهرة ناضرة أو غصنا رطيبا ، اذ في ذلك جناية كبرى ، (ص ص 20 — 21) .

شعوره بمرض القلب وتأوهه : ولئن كان الشابي يعشق الطبيعة ويجد فيها مسلاة لنفسه فكثيرا ما كان يحرم من التمتع الكامل بما يشاهده فيها ، «وكانت

مشاهد كثيرة متباينة ، ههنا صبية يلعبون بين الحقول .. ومن لي بـأن أكون مثلهم ! ولكن أنى لي ذلـك والطبيب يحظر علي ذلـك ، ان بقلبي ضعفـا . آه يا قلبي ! أنت مبعث الامي ومستودع احزاني ، وأنت ظلمة الاسى التي تطغى على حياتي المعنوية والخارجية » .

3 ـ **ثقافته ومطالعاته آراؤه :**

● **من مطالعاتـه** « الاراء والمعتقدات » لغوستاف لوبـون « رفائيـــل » لـ « لا مارتين » أشعار **المتنبي والمعري** ولا يخفى اعجابه الشديـد بهـذين الاخيرين : « **فالمتنبي** قد كان عزيز النفس، شاعرا بعزته وكرامته رغم امتداحه الملوك ، وبذلك تخطى أعناق الدهور الى سماء الخلود ، **والمعري** قد كـان أكثر شعورا بعزته وكرامته ، وبذلك ابتكر مذهبا جديدا في الفكر ومدرسة حديثة في تفهم الحيـاة ..

● **تعلقه بالنزعة الرمزية في الشعر :** رغم انتقاد البعض له ومن الانتقاد ما وجهه اليه أحد اصدقائه يوما اذ قال له : (ص 33) : « ان ادبك يـا صديقي فن لا أظنه يعيش في تونس ، فأنت في شعرك من الشعراء الذين يدينون بالمذهب الرمزي (« سانبوليزم ») وانني لعلى يقين من أن أدبك لا يفهمه في تونس الا افراد قلائل لا يتجاوزون الاربعة أو الخمسة على الاكثر» ويجيب الشابي عن ذلك بالصمت وهو يقول في نفسه (ص 34) : « لست والله غيـر طائر غريب يترنم بين قوم لا يفهمون أغاني الطيور . ولكن هل يحفل الطائر بالوجود حتى يترنم ؟ هل يسأل الناس أيكم يفهم أغاني الطيور ؟ كلا ! يا قلبي ! كلا .. سر في سبيلك يا قلبي ، ولا تحفل بصفير الابالسـة ، فان وراءك أرواحا تتبـع خطـاك .

الناقـد الادبي : من نماذج نقده الادبي ما يتصل مثلا بكتاب للدكتور هيكل عنوانه « تراجم مصرية وغربية » يعلق عليه الشابي بقوله :

« هو كتاب اختصر فيه تاريخ مصر وذكر فيه آراء شاذة غريبة في التاريخ ودراستـه » .

ـ على أن أهم نموذج لنقده الادبي والشعري بالخصوص ما تجسد في كتابه « الخيال الشعري عند العرب » وفيما قيل في شأنه كفاية في هـذه الندوة أو خارجهـا .

رأيه في الشعر : له فيه مقال بعنوان « الشعر ، ماذا يجب أن يفهم منه وما هو مقياسه الصحيح ؟ »

وأحسن تلخيص لذلك ما قاله بخصوص محاضرته التى ألقاها يوم الاثنين 20 جانفى 1930 بالنادى الادبى حول « الخيال الشعرى عند العرب » والتى قال فى شأنها : « جاهرت فيها باراء لم تسغها أفكار بعض ادعياء الادب ، وعدوها ثورة على الآداب العربية ، وجحودا لمزايا العرب ، وتطورت هذه الفكرة فى نفس الناس والتفت حولها الاراجيف والاشاعات الكاذبة حتى عدها الجهلة زندقة وكفرا ! » .

قبوله للنقد : ولا يظنن أحد أن الشابى بقوله هذا كان يرفض النقد . بل كان يمقت النقد المغرض . أما النقد الموضوعى النزيه فيرضى عنه ويشجعه «ان رأيى فى الانتقاد أنه ليس « شيطانا يبث بذور الشقاق وانما هو ملاك يحمل سراج الحقيقة فى سبيل الانسان .. انى لست من هاته الطائفة التى لا تفهم من النقد الا عداء وسبابا ، ولا ترجع قلمها الا لغاية سافلة وغرض دنىء ، لست والحمد لله من هاته الطائفة ولكننى ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه وممن يسرون بكل انتقاد لا تكون غايته غير الحقيقة ولا مصدره غير الاخلاص .. (ص 60) .

● **مقته القول دون العمل** : « لقد اصبحت ناقما على التونسيين لانني أراهم يقولون كثيرا ولا يعملون الا قليلا .. ان التونسيين الآن ذوو نظريات فسيحة واسعة لكنهم يدورون فى منطقة ضيقة من الأعمال لا تكاد تنتج شيئا » .

4 ـ المواضيع التى كانت تستقطب اهتمامه :

● **شغفه بالمسرح والتمثيل** : تحوله الى جمعية التمثيل العربى صحبة بعض أخلائه لمساعدة الممثلين على التمرن الصحيح وتقديم ما اعوج من كلماتهم.

● **اقباله على المسامرات الفلسفية** : اعجابه بحديث أستاذه « لا موت » عن « العقل الباطن » و « العقل الواعى » وهو من المواضيع التى لم يفهمها الكثير من زملائه فيسخر منهم قائلا : ذلك لأنها نفوس ألفت أن تعيش فى منطقة ضيقة من مناطق الحياة والتفكير .. لم تالف غير علوم « جامع الزيتونة » وأساليبه ولم تقرأ من غير ذلك الا دروس الحقوق ، مسكينة هاته النفوس مسكينة .. ! » (ص 69) .

ـ ميله الى التفلسف فى تفسير الاصلاح وهى فى نظره ضرب من تعلات الحياة التى تكون لنا فى يقظتنا آمالا وفى سناتنا أحلاما .. » (ص 70) .

● **تعلقه بالنهضة الادبية وتشجيع حركة الانتاج الادبى :** نذكر مثلا سروره بتخصيص جوائز للانتاج الادبى ، وذلك بتبرع حمودة بوسن أمين مال «قدماء الصادقية» بقسط من ماله لتنشيط الحركة الادبية بتونس كما عبر زين العابدين السنوسى عن عزمه على فتح اكتتاب لجمع المال فى نفس الاتجاه: يقول فى هذا الشأن عند خروجه من النادى ـ وقد تقرر هذا التشجيع والتنشيط للحركة الادبية ـ صحبة صديقيه المذكورين :

« خرجنا وانا مبتهج اعظم الابتهاج اذ رأيت الناس فى تونس قد اخذوا يشفقون على الادب ويعملون على تشجيعه والنهوض بـه الى مستواه بمختلف الوسائل .. » .

5 ـ أسلوبه وخصائصه :

أسلوب الشابى فى نثره متين سلس بليغ موسيقى هو صورة لشخصيته النابغة وذاته الشعرية الفنانة :

أ) **التشخيص :** تشخيص الطبيعة ـ تشخيص الحياة، اضفاء الخيال : تتحول عنده الريحانة الى فتاة جميلة : « ها هى تلك الريحانة الجميلة التى انبتتها فى سبيلى **انامل** الحياة ـ ها هى تنظر الى بعينيها الجميلتين الحالمتين بأحلام الملائكة .. ثم تشير الى **براحتها** الجميلة الساحرة **وباناملها** الدقيقة الوردية ، ثم ها هى تطبع على ثغرى قبلة حلوة ساحرة بشفتيها المعسولتين برحيق الحياة (ص 11) .

أو قوله : « .. انما هى المعانى قد كانت تتابع نفسى آخذة برقاب بعضها البعض (ص 18) .

2) **التشبيه :** يقول متحدثا عن الزهور : « الست أراها **ترتعش** بين أحضان النسيم **ارتعاشة** الغانية على صدر عاشقها السعيد ؟.. »

ويقول في ناحية أخرى :

« ألست أرى وريقاتها الصغيرة **تتحرك حركة** من يهم بالكلام كأنما تحاول أن ترتل أغنية الحب والجمال ؟.. »

3) **استعمال الفصيح من الكلام** : كقوله : « أجلو عن نفسي ما ران عليها من أقذاء الاجتماع » (ص 17) .

او قولـه : « عاصفة هوجاء أو وابل **هتان** (ص 18) .

ــ « غادة رعبوب مرخاة الذوائب » (ص 70) .

4) أسلوب الحوار : يتحاور الشابي مع نفسه ، كقوله : « لا تغامر يا شابي وارجع الى عشك واستخلف الله في هذا الشعب الضائع والخيبة المرة .. » (ص 18) .

5) **استعمـال المحسنات البديعية** : يستعمل الشابي بعض المحسنـات البديعية (بدون افراط) مثـل :

ــ **الطباق** : كقوله : « التلال **الخرساء الناطقة في صمتها** بأبلـغ معـاني الحياة » (ص 22) .

ــ **الجناس** : كقوله : « فان لك من أصدقاء أبيك وشهرته **الطائرة** وخدماته **الطاهرة** .. ما يحقق لك هاته الامنية في أسرع من لمح البصر .. » (ص 65) .

ــ **المقـابلة** : كقوله : « .. غربة الشاعر الذى استيقظ قلبـه في اسحـار الحياة ، حينما تضطجع قلوب البشر على أسرة النوم النـاعمة » (ص 31) ، في هذه الفقرة قسمان ونلاحظ هنا المقابلة بين القسمين :

القسم الاول : « **غربـة الشاعر الذى استيقظ قلبه فـي أسحار الحياة** » .

القسم الثاني : « **حينما تضطجع قلوب البشر على اسرة النوم الناعمة** » .

6) **الموسيقى اللفظية والايقاعات الصوتية :**

يذكرنا نثر أبي القاسم الشابي بما ألفه الشاعر الفرنسي « شارل بودلير » من « قصائد صغيرة نثرية » وذلك لما يتصف به أسلوبه من نغمات ومقاطع صوتية ، تقوم على التوازن بين الجمل وما تنتهي به من امتدادات صوتية قريبة كل القرب من السجع .

« .. ثم ها أنا أنظر فلا أجد شيئا مما رأيت ، لقد ذهبوا كلهم الى عالم الموت البعيد . وتفرقوا شيعا في أودية المنون الصامتة فما عدت أراهم حتى الابد في مسالك هذا **الوجود** . وما عدت القاهم حتى الموت في صحراء هذه **الحياة** . لقد احتجبوا عني حتى الأبد وبقيت وحدي في هذا العالم . أناديهم من وراء **الوجود** ولكن عبثا أدعو فانهم بعيدون عني لا يسمعون نداء روحي ولا صرخات قلبي **الغريب** .. لقد ذهبوا كلهم وبقيت ههنا وحدي انا في وحدتي وانفرادي وفي سكون الظلام » .

الخاتمة : وهكذا نستطيع القول بعد هذا الاستعراض لما تميزت به «**مذكرات الشابي**» محوى وأسلوبا انها وثيقة هامة لمزيد الاطلاع على شخصية هذا الشاعر الفذ ذي العبقرية المبكرة،والالمام بجوانب من حياته وأدبه الطريف وهي لا تقل قيمة فنية عن بقية آثاره الاخرى وخاصة ديوان شعره ، ويتسنى لنا أن نصرح بأن الشابي الكاتب الناثر مكمل للشابي الشاعر من حيث هو أديب تونسي يتصدر طليعة الادباء العرب في عصره ، ويبقى خالدا عبر العصور بفضل ما امتاز به من حساسية وقدرة على الخلق والابداع .

الحبيب الشاوش

حِوار مع ميسون بنت بَجْدل الكلبية

شعر : محيي الدين خريف

لَبَيْتُكِ هذا الذي تَخفِقُ الريح فيهِ .. (*)
رَوائحُ مِنْ نَفَحاتِ الخُزَامى
وَسُورٌ مَنيعٌ يُباعِدُ بَيْنَ العذابِ وبَيْنَ اليتامى
هُنالِكَ لَيْسَتْ تَضيقُ المِساحاتُ ..
كُلَّ غِناءٍ وَطَنْ .
وَكُلَّ ثِمارٍ تَساقَطُ تَحمِلُ طَعْمَ الوَطَنْ .
وَكُلَّ نِداءٍ يَمُرَّ يُحرّكُ قَلْبَ الزمَنْ .
وَحِينَ أَسَفَّتْ طُيُور الصَحَارى تُغَنّي لِقَوْسِ السّحابْ
– « فَمَا أَبْغِي سِوَى وَطَنِي بديلا
فَحَسْبِي ذَاكَ مِنْ وَطَنٍ شريفِ »
ذَهَبْتُ أُفَتّشُ فِي دَرَج الذّاكِرَهْ
وأَبْحثُ عنّي وقلبي اللّهيبُ يردّدْ :
– « لَبَيْتٌ تَخفِقُ الأرواحُ فيه
أَحَبَّ إِليّ مِنْ قَصْرٍ مَنيفِ »

(*) الابيات التى بين قوسين لميسون بنت بجدل وهى امراة من البادية تزوجها معاوية ابن ابى سفيان واسكنها فى قصوره بالشام ولكنها نبذت حياة الحاضرة وحنت الى البادية .

بقصرِ معاويةٍ لايَنامُ معَ الوردْ
عَش الغُرَابْ
وليس ينال للسرابُ: السَّرابْ
وقدحُ معاوية للحجارة يفحم كلّ خطابْ
ثِقالُ الخُطى ما يزالونَ يمشونَ
في الحجرات الثريَّهْ
وعند جدار المباكي ينامُ شقيٌّ ..
وتصحو شقيَّهْ
ولاَ يمسحُ الضوءُ ما رانَ منْ ظُلمةٍ سرمديَّهْ
غداً عندما تتعلَّمُ أنْ تقرأ الحرفَ ..
ابدأْ بحاءٍ وزايٍ ونونْ
هنالكَ أودعتُ سرّكَ في كانَ أوْ لا يكونْ

محيي الدين خريف

معركة تحرير صفاقس من النرمان في الرواية الشعبية

بقلم : أبو بكر عبد الكافي

تقديـــم :

مر على هذه المعركة النضالية نحو الثمانية قرون ، ولم تنس اخبارها ولا أمحت آثارها ، وما زالت تفاصيلها حية فى الاذهان ، والى سنوات قليلة مضت كانت جل العائلات الصفاقسية العريقة تحتفل سنويا باحياء ذكراها فى نخوة واعتزاز وتسرد اخبارها وتكون موضوع نقاش بين الآباء والابناء تلفت اثناءها الانظار الى أماكن معروفة ومشهورة عرفت المعركة وطبعت بطابعها وما زالت صامدة عظيمة تصارع القرون وتبرهن للاحفاد عن بطولة اجدادهم الذين حطموا الاغلال والقيود ورفعوا ألوية العزة والحريـــة .

هى معركة تاريخية زاخرة بمعاني البطولة والنضال ، بارزة فى تاريخنا التونسى الثرى بالمواقف الحاسمة فى ميدان الكرامة والشرف ؟ ولم يؤثر على بقاء اخبارها متكاملة تعاقب الزمن وما فيه من احداث حتى وصلتنا سواء عن طريق المصادر التاريخيـة او الرواية الشعبيـة ذات الطابع الخاص والتجذر العميق لانها نابعة من ذلك الماضي البعيـــد .

المصادر التاريخيـة :

من المصادر التاريخية لهذه الحادثة اذكر :

رحلة ابى محمد عبد الله التجاني .

التاريخ الكامل لابن الاثير احداث سنة 543 هـ وسنة 551 هـ .

تاريخ ابن خلدون المجلد السادس .
تاريخ محمود مقديش (حجـر) ج I ص 193 و 194 .
المكتبة العربية الصقلية (امارى) .
الجزء الثانى من كتاب تاريخ صفاقس (عبد الكافى) .

الراوى الشعبـى :

اعتاد الراوى الشعبى فى سرد الاحداث وتقديم القصص من ذهنه استخدام الخيال الذى كثيرا ما يؤدى به الى المبالغة المفرطة فى تصوير الوقائع واكسائها ما يبرز ابطالها وقصده فى ذلك التشويق والترغيب بينما الباحث البصير يعتريه الشك فيما يسمعه مما يجعله يعيد النظر فى المحتوى ، وعلى الاخص ان كان للقصة او الخبر الذهنى علاقة تاريخية او اجتماعية ، مما جعل النصوص الذهنية الشعبية تنعت بالاساطير وتنسب للخرافات .

كذلك نعرف الراوى الشعبى سواء كان مختصا ممن كان يدعى بـ (الفداوى) او كان غير مختص ، والحادثة التى نحن بصدد الحديث عنها تكاد تكون خاليه من خيـال وتزويـق الـراوى الشعبى بحيث اذا قورنت بما جاء فى المصادر التاريخية ووضع ما وجدناه فيها زائدا ـ ولم يذكره المؤرخون ـ على بساط البحث نتحقق صدق الرواية الشعبية وتكاملها فى هذه الحادثة ؟

رواة الحادثـة :

تتبعت اخبار هذه الحادثة فى الاذهان الشعبية وسجلت بعض ما سمعته من رجال مسنين يمتازون بالذاكرة والالمام واعمارهم بين الثمانين سنة والمائـة وعشرة اعوام وقد توفاهم الله منذ الستينات ثم قارنت ما وجدته فى الاذهان بما اورد المؤرخ الصفاقسى محمود مقديش المتوفى سنة 1228 هـ عن سن عالية فاذا بروايته تتفق فى الكثير مما وجدته فى الذهن الشعبى وفى ما جاء بالمصادر مما افهم منه ان المرحوم جمع بين الرواية المكتوبة والرواية الشعبية مع انه احترز فى بعض ما يمكن ان يرى من باب الاسطورة .. كما سنحرر ذلك .

التسميـة الشعبيـة :

الرجل الشعبى ينسب الحادثة لليلة التى وقعـت فيها فهى عـنده (ليلـة الحاجوجا) وكلمة حاجوجا تبدو غريبة عندى من حيث المعنى والاشتقاق .. ولم

اجدها لدى المعجميين العرب .. ولا أدرى هل هي من (الحجة حجج) بمعنى برهان وبراهين ، وعلى هذا يكون ابطال الحادثة او قادتها كانت مجالس نقاش فى تصميم مخطط الانتفاضة ؟ وهناك من ادعى ان (الحاجوجا) كلمة محرفة عن كلمة (الحاجوزة) بمعنى (الليلة الحاجزة) بين العبودية والحرية ؟ او بين سنة انتهت وسنة حلت لان الحادثة كانت ليلة راس السنة الاعجمية ؟ وهذا ايضا تاويل خاطىء لان (حجز) بمعنى فصل لم يرد من (فاعول) وقلب الجيم زايا فى اللغة الشعبية يكون عادة فى الكلمة التى بها جيم وزاى ونلاحظ ذلك فى كلمات عديدة اذكر منها على سبيل المثال : « عزوز فى عجوز ـ زوز فى زوج ـ زوز فى جوز ـ زلوز فى جلوز » الى آخره وما سمعنا من يقول مثلا : « حجز فى حجج » لذا ارى ان تبقى كلمة (حاجوجا) موضوع بحث مع ان الرجل الشعبى لم يقلب الزاى جيما .

والرجل الشعبى ينسب الاعداء المحتلين للاسبان ويعبر عنهم بـ (السبنيور) .وهذا غلط سببه تداخل اخبار الاحداث فى الذهن الشعبى واحداث الاسبان بتونس جاءت بعد الحادثة المتحدث عنها بقرون .

الضبط الشعبى لتاريخ الحادثة :

ارخ الرجل الشعبى وقوع الحادثة باول ليلة من السنة الاعجمية لتاثره المتوارث فى ضبط الاعمال الفلاحية بالاشهر الاعجمية ونراه يجعل الحادثة ضمن احداث زمنية وفصلية ويعدها سبعة احداث يسميها (سبعة افصال) تكون فى ليلة غرة يناير الاعجمى ويركز على (الافصال السبعة) قواعد وتجارب فلاحية واخرى جوية ، وفيما يلى موجزها :

- راس السنة الاعجمية (خروج عام ودخول عام)
- اينار بفتح الاول وكسر الثانى مع التشديد (يناير)
- خروج الليالى البيض ودخول الليالى السود
- النصف فى الشتاء
- الحاجوجا (اى الحادثة) التى نتحدث عنها

بحيث نعلم ان الرجل الشعبى ارخ الحادثة بغرة يناير الاعجمى الذى يوافق ليلة (14) جانفى الميلادى وضبطها المؤرخون بسنة : (551 هـ) الموافق لعام (1156 م) .

الروايـة الشعبيـة للحادثـة :

بما ان المرحوم مقديش جمع في روايته لاخبار الحادثة مـا ورد في المصادر التاريخيـة ومـا سمعه من الاذهان انقل فيما يلي ما حرره ثم أشفع ذلك بما وجدته في الاذهان ولم يذكره مقديش ولا المصادر : قـال محمود مقديش (1) : « وكيفية اظهار صفاقس الخلاف ، ان لجار (2) لعنه الله لما تغلب على البلاد طلب الرهائن من البلدان (و) من جملة رهائن صفاقس الشيخ الـولي الصالح العالم سيدى ابى الحسن على الفرياني بعد ما طلبوه ان يكون هو مقدم البـلاد فادعى العجز واقيم ولده الشيخ سيدى عمر رحمه الله فجعل مقدما ، ولما ارادوا الخروج لصقلية قال الشيخ ابو الحسن لولده : يا بنى انا كبير السن وقـد قارب اجلى فمتى امكنتك الفرصة فى الخلاف على العدو فافعل ولا تراقبهم ولا تنظر الى فانى اقتل . واحسب أنى قد مت (؟) (3) فلما وجد عمر فرصة دعا أهل المدينةلمخالفة الافرنج وجميع النصارى وقـال : ليطلع منكم جماعـة الى السور وجماعـة الى مساكن الافرنج (4) والنصارى جميعهم وليقتلوهم فقال له (5) ان الشيخ والدك نخاف عليه فقال : هو أمرنى بهذا واذا قتل بالشيخ ألوف من الاعداء فما مات؟ فلم تطلع الشمس حتى قتل الافرنج عن آخرهم وكان ذلك أول السنة المذكورة وذلك اوائل ينايـر .

وما قاموا عليهم حتى جعلوا صهريجا تحت الارض شرقى المسجد الاعظم فى صورة مخزن الماء وصاروا كل ليلة ينزلون اليه لعمل السلاح والى الآن يسمونه ماجل الصاغة وكان بابه مكشوفا فلما احدثوا الساباط الشرقى مـن المسجـد للموازين وجعلوا هناك حانوتا صار بجانبه (6) وهو تحت الطريـق من جهـة مشرق المسجد . ولما جاءت ليلة يناير عيد النصارى اظهروا معهم الفرح بموسم

---

(1) نزهة الانظار لمحمود مقديش ج 1 ص 193 ـ 194 طبع حجر

(2) هو رجار ملك النرمان .

(3) الوصية اوردها تامة ابن الاثير احداث 543 هـ والتجانى بالرحلة .

(4) مساكن الافرنج بالحارات كما يأتـــى .

(5) هكذا بالاصل والانسب : فقالوا له .

(6) يعنى سوق الرمانة وكان يدعى ساباط الموازين اى المكان الذى كان يجلس به المكاس لاستخلاص الاداء على البضائع واحدث هـذا الساباط فى اول القرن الثالث عشر الهجرى .

النصارى وامروا بطبخ الفول فى كل دار وجعلوا جماعة يدورون على الدور فى صورة شحاتين (7) يشحتون الفول وأمر كل صاحب دار ان يخرج من الفول بقدر ما عنده من الرجال فجمعوا ما تحصل وعدوه وعرفوا ما عندهم وأعطوا كل واحد من السلاح بقدر ما اعطاهم من الفول واحدثوا لعبا سموه لعب ضرب النار والى الآن يلعب به الاصاغر (8) ولما اتقنوا وجه الحيلة مالوا على الكفرة ليلا فلم تطلع الشمس حتى قتل الكفار عن آخرهم كما تقدم .

وتبعهم ابو يحيى بن مطروح بطرابلس ثم محمد بن رشيد بقابس ولم يبق تحت حكم الكفار غير المهدية وزويلة فارسل سيدى عمر بن علي الفرياني الى زويلة يحرضهم على الوثوب على من معهم فيها من النصارى ففعلوا ذلك وقدم عرب البلاد الى زويلة فاعانوا اهلها على من بالمهدية من الافرنج وقطعوا الميرة على المهدية فلما اتصل الخبر بغليام (9) احضر الشيخ ابى الحسن وعرفه ما فعل ولده وأمره أن يكتب اليه ينهاه عن ذلك ويأمره بالعود الى طاعته ويخوفه عاقبة فعله فقال له : من اقدم على هذا لا يرجع بكتاب فارسل غليام (9) اللعين رسولا يتهدد الشيخ عمر ويأمره بترك ما ارتكبه . فلم يمكنه الشيخ عمر من دخول البلد يومه ذلك فلما كان الغد خرج اهل البلد جميعهم ومعهم جنازة والرسول يشاهدهم فدفنوها (10) . قال الرسول وصلت صفاقس فلم امكن من النزول الى البر ، ولما كان من الغد سمعت فى البلد ضجة ثم فتح باب البحر فخرج الناس يكبرون ويهللون ومعهم نعش قد رفعوه على رؤوسهم فحطوه ثم تقدم عمر فصلى عليه ودفنه (10) وعزاه الناس وانفصلوا . قال : فاستدعيت الجواب فقيل ان الشيخ مشغول فى العزاء فى والده الذى بصقلية والنعش الذى رايته نعشه وقد عزم على موته والسلو عنه وليس له جواب الا ما رأيت . فلما بلغ ذلك طاغية صقلية امر بابى الحسن فسحب الى المشنقة بوادى عباس فشنق وهو يتلو كتاب الله » .

---

(7) الاصح الشحاذين ، والشحاذ هو المتسول .
(8) فى الاصل يلعبن به .
(9) هو غليالم بن رجار تولى الحكم بعده .
(10) يعنى ودفنوا الميت .

ما وجدته فى الاذهــان :

فيما يلي اورد ما وجدته بالاذهان ولم يذكره مقديش وذلـك اتماما للروايــة الشعبيــة :

قالوا : كان النصارى ضيقوا على المكان كل التضييق وتدخلوا فى شؤونهم وسخروا منازل بحارات السكن اقروا بهــا بعض الجنود تشديدا فى الحراسة ومراقبة للتحركات الشعبية وجردوا السكان من ما يمكن ان يكون سلاحا حتى سكاكين المنازل وجعلوا بكل حارة حانوتا بــه سلسلة بها سكيــن مشدودة فى الحائط كان يستعملها السكان فى المآرب المنزلية .

والسلاح الذى صنع بماجل الصاغة عبارة عن زاغات كل زاغة ثابتة بأسفل عكاز وتدخل فى قراب من نوع العكاز يطعن بها طعنا .

وليلة الحادثة اعدوا ابقارا زينوها بالثياب والحلى النسائية فى بــرج صار يدعى (برج البقرة) وشدوا الى قرونها المشاعل وقدموها امامهم عند المسيرة على نقر الطبول والدفوف اتماما للحيلة وإظهارا للافراح،وفى اثناء المعركة فرت تلك الابقار حيث وجدت بعد بطريق تونس (كلم 2)فذبحوها وتصدقوا بلحومها وباعوا ما كسيت به من الحلى واحدثوا به مواجــل للماء صارت تدعى (مواجل البقــر) .

نقاش وتحقيق لما فى الرواية الشعبيــة :

تسخير بعض المنازل : اثناء دراستنا للمدينة وجدنا فى بعض الدور اشكالا غريبة مريبة بالنسبة لعمارة الاسلامية لانها للمسيحية أقرب ، اذ تجد فى الدار منها حجرة فى الجدار المواجه للداخل (كــوة) حائطية فى جوف الحائط عمودية الوضع مستطيلة الشكل اسفلها أوسع من اعلاها وتفصلها فى ثلثها الفوقى كوة ثانية أفقية الوضع فاذا هما خطان يكونان شكل (صليب) وهذه الهندسة لا يمكن ان يحدثها بناء فى دار مسلم ؟؟ والاعتقاد الشعبى المتواتــر وتسمعه من كل من نسأله ، (هذا من مخلفات السبنيور) أى النرمان عندما سكنوا بتلك الدار والرجل الشعبى يسمى النرمان سبنيــور ومن قــال من الباحثين : إن تلك الاشكال الصليبية من بقايا الاحتــلال الاسبــانى لمدينة صفاقس فقوله مردود لانه لم يثبت ان الاسبان فى آخر العهد الحفصى احتلوا صفاقس ورابطوا فيها كما حدث فى غيرها .

واستنتج من وجود تلك الاشكــال ان تسخير المنازل مــن طــرف النرمان ومرابطتهم فيها كما ورد على الطريق الذهنى صحيح ولا يرد .

التجريـد من كل سـلاح :

ان تجريد السكان من الاسلحة ومن كل ما يمكن ان يكون سلاحا اراه خبرا صحيحا وذلك :

ـ لانه ورد ان السكان عندما عزموا على الانتفاضة صنعوا الاسلحـة وسط ماجل فى باطن الارض ، لماذا ؟ لانهم جردوا من كل سلاح ولانهم اتبعوا طريق السرية والتكتم التامين ؟ اذ لو لم يكن الامر كذلك لصنعوها فى منزل ونحوه

ـ والسلاح الذى صنعوه يتسم ايضا بطابع التكتم الشديد ؟ رغم تواضعه المفـرط ؟

ما هـو نوع السلاح :

تقول الرواية كان سلاحهم يتكون من (زاغات) ثابتة باسفل عكاكيز تدخل فى قراب من نوع خشب العكاكيز بحيث لا تلفت النظر ولا يعرفها الا حاملها ، وحدثنى بعضهم بانه شاهد هذا السلاح لدى عائلة سماها وعندما اتصلـت بها وجدتها فرطت فيه والزاغة تجمع على زاغات وهى عبارة عن شبه حربة تستعمل فى الطعن عند التلاحـم .

ماجـل الصاغـة :

قالوا : ان الزاغات صنعت بماجل الصاغة ووصف مقديش مكانه وكانه بين يديه ، مما يدل على وجوده العهده ، وقد بحثت الموضوع كما ساوضح ، غير انى ارى ان كلمة : (صاغة) المضافة للماجل محرفة عن كلمة (زاغة) اعنى نوع السلاح الذى صنع بالماجل فهو (ماجل الزاغة) والزاى والصـاد متقاربان فى النطق وهذا الاصلاح ـ وآمن به ـ يثبت لنا ان السلاح الذى استعمل بالمعركة هو كما جاء فى الرواية (زاغات) .

وصف هذا الماجـل :

ثبت لدى ان هذا الماجل يقع جوار الجامع الكبير شرقا لصق سوق الرمانة ويمتد تحت هذا السوق الى باب سوق الربع ، وكانت له اربع فتحات (افواه) الاولى كانت أمام نافذة الجامع الاخيرة شمالا بالواجهة الشرقية وسط حجرة مفتحها لرواق الجامع الشرقى وتدعى (حجرة البير) وعاشت الى سنة 1965 والى هذا التاريخ يملأ الماء من الماجل وعندما فتحت الاشغال بالجامـع هدمت الحجرة وطمس فم الماجل ، وفى انقاض الحجرة المذكورة وجدت حجارة منقوشة فهمت منها ان الحجرة احدثت فى عهـد السلطـان الحفصى ابى عمـر عثمان وتسمية الماجل بثرا دليل على كبره وعمقه .

والفتحة الثانية كانت بركن سوق الرمانة الشمالي الغربي وكان مكتوبا بالجدار الذي فوقها بالفرنسية ما تعريبه (خزنة ماء) والثالثة كانت بدكان شرقي المفتح بالسوق نفسه والرابعة بالركن الجنوبي الشرقي من السوق المذكورة ، وهذه الابواب الاربعة التي تحتل سوق الرمانة وترتكز بزواياه الاربعة يؤيد ما قاله مقديش في وصف هذا الماجل .

حدثني رجل مسن بانه في اول هذا القرن استخدم في تنظيف هذا الماجل وهو كبير جدا ومقام على ثمانية اقواس وسقفه من نوع القبو (دمس) وعندما مدت قنوات التطهير بالمدينة سنة 1920 مدت فوقه مباشرة ولم يحدث به ضرر ، من هذا نعلم ان الماجل الذي صنعت به الاسلحة لا يزال قائم الذات بحيث لو تجرى به دراسة اثرية لا ارتاب بانها تمكننا من العثور على اشياء تمكننا من حقائق عن هذه الحادثة ..

طعام الفول :

جاء بالرواية ان السكان او القيادة استعملوا الفول وسيلة لاحصاء عدد القادرين على القتال وايد هذا ايضا مقديش ، وقام بجمعه وتسليم الاسلحة شحاذون .

هذا الخبر يؤكده الواقع المعيش لان طبخ الفول (مدمس) يعد عندنا من لوازم الاحتفال بليلة الحاجوجا ، وكان السكان يطبخونه ليلتها الى عهد قريب وتغلغل هذه العادة ووجودها في زمن معين يوافق ليلة الحادثة دليل على صحة الرواية ؟؟ والطريقة (الفولية) المتبعة في الاحصاء تدل من جهة ثانية على شدة التكتم ؟ وعلى شدة الخوف من الظلم ؟

اغاني الحاجوجا :

قالوا ايضا : ان الشحاذين اثناء طوافهم لجمع حبات الفول كانوا يتغنون بأغاني خاصة وبحثت كثيرا عن وجود بعضها في الاذهان وبعد جهود جمعت ما يأتي :

يا حنا يعطيك اصبي يددش فوق الحصير

الليـة راهي حاجوجا راهي والله حجوجا

خاشي ؟ خاشي ؟ دق دق هات الفول

(اصبى) ابن ذكر ـ والصبية بنية ـ (يددش) يـدرج ـ (خاشى خاشى) احذر احذر فهذه القطعة البسيطة بكلماتها ووزنها نفهم منها انها قيلت فى ظرف شديد كانت فيه حرب او مظالم اتت على الرجل وضيقت على السكان مما جعلهم يرمزون فى احادثهم وطلباتهم بالكلمة حفاظا على السر وخوفا من العسف ؟؟

دعاء حار من الاعمـاق موجه اثناء الاستعداد للخلاص يدعو لكـل مقصـود بانجاب ابناء ذكور ؟؟ مع التنبيه بالحـذر والاعـلان بانها تلـك الليلة ليلـة الحاجوجا ؟ ثم تمثل القطعة الحركة التى قام بها الشحاذون :

(دق دق : هات الفول ؟)

بـرج البقر ومواجل البقـر :

قالوا ان الابقار التى أعدت وكسيـت بالحلل والحلى وقع اكساؤها واعدادها باحد ابراج السور وهذا البرج لا يزال قائما ويقع بالسور الجنوبى غربا وكان يدعى (برج البقرة) وفى اول هذا القرن حول الى مخبرة ثم ترك .

وقالوا : ان الابقار اثناء المعركة فرت ووجدت رابضة بطريق تونس فذبحت وتصدق بلحومها وبيع ما عليها من الحلى وبنوا به مواجل للماء تدعى الى اليوم (مواجل البقر) .

اننا نعلم بان اثر الشىء دال على وجوده ؟ وما اتت به الرواية الشعبية كلـه نجد له وجودا طبعت عليه الحادثة طابع وجودها ؟ فلم نتنكر له وننسبه للخيال الاسطورى الشعبى ؟؟

ان ماجل الزاغة وبرج البقرة ومواجل البقر كلها آثـار خلفتها الحـادثة ؟ ولولاهـا لما كان لها وجود ولا انطبعت عليها تلك الاسماء ؟ وعادة طبخ الفول ليلة الحادثة ما زالت تذكر باسباب هذه العادة ؟

ان وقوع الحادثة حقيقة تاريخية اتفقت عليها كل الرواة وظرفهـا الشديد والتضييقات العظيمة حقيقة اثبتتها الآثار والكلمة معا ؟ وما ورد مـن اوصاف الاستعداد للمقاومة وعدتها ومن رمز بالكلمات والفعل دليل واضح على ما طبع عليه التونسى من ايمان بحقه المشروع وصموده فى صبر من اجل ذلك ، وعلى ذكائه فى وضع الخطط النضالية وايجاد الوسائل الناجعة .

ابو بكـر عبد الكافى

ترجمة نثرية لشعر لوركا

شجرة الحور العتيقة

بقلم: خليفة محمد التليسي

يا شجرة الحور العتيقة
لقد وقعت
في مرآة المستنقع النائم
وحنيت جبهتك
للغروب
لم يكن الاعصار المبحوح
هو الذي قطع جذعك
ولا فأس الحطاب الثقيلة
التي كانت تدركُ
أنك ستبعثين حتما من جديد
بل كانت روحك القوية
هي التي نادت الموت
بعد أن رأتك
بلا أعشاش
منسية مهملة من شجر الحور الصغيرة
المتناثرة في المرج الفسيح

هكذا ظامئة إلى الفكر
ورأسك الضخم المعمر
كان يصغي
وحيدا
إلى الأغاني البعيدة
تصدح بها أخواتك
إنك تحفظين في كيانك
حمم الهوى
وفي قلبك البذور التي لا مستقبل لها
البذور الهائلة
التي تحمل عشقا بريئا
لشمس الغروب
يا لها من مرارة عميقة !
أن تكون
بطلة الغابات
بلا أغصان

في ذلك المشهد الريفيّ الجميل
لن تكوني بعد اليوم مهدا للقمر
ولا الابتسامة الساحرة للنسيم
ولا عصا النجمة التي تمتطي
صهوة الجواد
لن يعود ربيع حياتك
ولن ترىْ الزروع تزهر
ستكونين عشا للضفادع والنمل
وستكون جدائلك
من الحشائش
وفي يوم من الأيام
وبحزن عميق
سيحمل التيار
لطفلك الساحر
يا شجرة الحور العتيقة
لقد وقعت
في مرآة
المستنقع النائم
لقد رأيتك
تسقطين
عند الفجر
وها أنا أكتب مرثاتك
التي هي مرثاتي

(لوركا)

من المواضيع التي ستنشر مستقبلا

العقلية العلمية عند الشابي .... د. عبد القادر بشته
العلوم الصحيحة عبر الحضارات .... د. محسن العيادي
المنهجية العربية لوضع المصطلحات .... د. محمد رشاد الحمزاوي
الانشاء الشابي في انتظار قراءات جديدة .... محمد خريف

كلمات منثورة

: البشير المجدوب

أترضى أن تكون أقل شجاعة وتصميما من جسدك الجلد الصمود لا يني يقاوم أسباب الدمار والفناء فى كل طرفة عين !؟

***

غريب أمر ذلك المثقف الشاب جمعتنا واياه حفلة « ختم » ، وقد اصطحب ولدا له فى نحو الثامنة من عمره ، فاذا هو لا يفتأ يحتضنه ويضمه اليه من حين لآخر ، ويتودد اليه ويلاطفه على مرأى من الناس ، وكأنه فى أشد الوحشة اليه ، لم يستشعر فى ذلك حرجا ولا بأسا ، كما لو كان فى بيته وفى حل من أمره .. تبذلا وسخفا !

***

التبجح بالنعمة كفر بها وتجديف .

التبجح بالنعمة انحطاط عن مرتبتها ، وفقدان لشرف استحقاقها وفضل نسبتها .

***

ويلك ، يا هذا ، منسن تصبح فيها كالبغل البليد لا هم لك ابدا الا العلف والاسترخاء والنوم ، أخذا ولا عطاء ... عقما وخمولا !

***

قليل الاحسان عند الاحرار كثير .

***

التحدى ! تحدى الجماعة وتحدى الذات ... ذاك ما يزيد المجـون لذاذة وفتنة ، وقوة إغراء وجاذبية ، بل إن أقصى لـذته وسحـره والباعث الاصلى عليه هنالك ، فى ذات التحدى وفى الصميم منه .

***

من طرافة المعمار العربى فى تونس وامتيازه أن لكـل غـرفة فى الدار (أو لكل « بيت » كما يقال عندنا) ميزة ومزاجا ، وشخصية قائمة الذات حتى ان الغرفة الواحدة منفصلة مستقلة عن الجميع ، لها كيانها الخاص وجوها الخاص وسرها بل وطعمهـا الخـاص ، وإن كانت قسما صميما من المنزل ، جزءا لا يتجزأ منه .

فالبيت « القبلى » أحسن ما يكون مشتى ومرتبعا تنعم فيه أبدا بالنور والدفء والأنس يكاد ينسيك قسوة الصقيع فى أوج الشتاء ، تعطفا عليك ورفقا .. بشاشة وانشراحا ...

وأنت مخير بين « الشرقى » و « الظهراوى » فى الصيف والخريف يطفحان بردا وسلاما ، تسكن النفس اليهما وترتاح فى أشد القيظ لينا ورحمة .. رقة ولطافة ...

ولن يعييك ، بعد ذلك ، التصرف فى بيتك الرابع تروضه وفق مشيئتك وهـواك ، وإن شـذ وتمـرد ، واستعصى على التحديـد والتصنيـف .

البشيـر المجـذوب

وسالت دماء يا ساقية

قصة : آلناصر بلحاج

فركت عينيها تزيل بقايا النوم والتفتت الى زوجها النائم بالقرب منها وفى عينيها نظرات بها رعب حلم رأته منذ قليل ٠

رات ابنها الوحيد يرقص فى زواج زوجها من امرأة أخرى . رأته يرقص ، يرقص على صفير الصفارات وزمر المزامير وطبل الطبول وصفع الخدود ، يرقص ، يرقص ، يرقص حتى امتد طريحا ارهاقا واعياء ٠ ورأت زوجها وسط جمع من رفاقه يضحكون ويلعبون وجمع من الناس يأتونه مهنئين مسلمين وكلهم من أموات القرية ٠

تملت من زوجها وتمتمت :

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

ثم سارت الى المطبخ فأخذت كانونا واتجهت نحو كيس الفحم ، ملأت منه الكانون ثم خرجت الى فناء البيت وسارت نحو قم الدجاج حيث توجد دجاجاتها الاربع وعنزها ٠٠ وجمعت قشا لتضعه فوق الفحم ثم اشعلته ووضعت فوقه «صليحه» وتركت الكانون فى الفناء ٠ فهبت على صليحة نسمات الفجر الباقى٠ ثم عادت الى المطبخ وفكرها مشغول بالحلم ٠٠ أخذت اناء الحليب ورجعت نحو قن الدجاج ٠ دخلت الى الدجاجات اولا فوجدت بيضتين أخذتهما وسارت الى العنز تحلبهـا ولما أتمت الحلب اتجهت بالبيضتين والاناء المليء ـ فالعنـز كانت مدرارة هذا الصباح ـ نحو المطبخ حيث وضعت ما تحمل وأخذت سطل الوضوء وملأته ماء من «خابية» فى ركن من أركان البيت ثم أزاحت «صليحه» من فوق الكانون ووضعت السطل فوقه تدفيء ماء لوضوء زوجها ٠ انتظرت قليلا ثم ذهبت لتوقظ زوجها ٠

وقفت أمام الفراش تنظر اليه وتمتمت :

ـ أتتزوج غيرى !؟

ثم رفعت صوتها :

ـ صالح ٠٠٠ يا صالح قم لقد أوشكت الشمس على الشروق فقفز من فراشه ٠

ـ صباح الخير ٠

تلك هى عادته لا يحب البقاء فى الفراش انه يقول :

ـ ان ذلك مدعاة للكســل كامـل النهار .. وسألهـا .

ـ هل ماء الوضوء جاهــز ؟

فابتسمت هامسة :

أى نعــم .

ربت على كتفها وداعبهـا حينا ـ المداعبة لم تكـن من عادتـه ـ ثم خرج يتوضأ وهى تتابعه بنظراتها كما لو كان مسافرا تودعه ٠ ثم تمتمت :

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ٠

بعد ان اخذ زوجها السطل انصرفت الى اعداد فطوره وفطور ابنهما الوحيد أحمد . فطبخت البيضتين والقهوة ـ ان زوجها يحب ان يشربها اثر الصلاة مباشرة ـ بعد ان اتمت اعداد الفطور ذهبت توقظ ابنها . تحتضنه وتقبلـه وهو يحاول التخلص الى النوم لكن الام تلح فيستيقظ ويجلس فى فراشه :

ـ صباح الخير يا امــى .

ـ نهارك مبروك ان شاء الله يا زين الرجال ٠

ثم تدعوه الى تناول افطاره مع والده ٠ جلس الطفل البالغ من العمر عشر سنوات بالقرب منوالده فناولته والدته بيضة وأرادت أنتناول زوجها البيضة الاخرى غير انه أقسم ان تأكلها هى فقبلتها وابتسمت ٠

شرب ثلاثتهم الحليب ثم اتجه الاب وابنه الى باب الدار هو يقصد عمله والابن مدرسته وسارت الام وراءهما باناء ماء تودعهما وهى تبتسم :

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ٠

خرجا فأراقت الماء وراءهما وهى تقول :

ـ اللهم احفظهما ....

ثم اغلقت الباب وعادت الى شؤون بيتها وبالها مشغول بالحلم . ما لبثت الا قليلا حتى أخذت لحافا واتجهت الى جارتها حليمة وهى امرأة كبيرة معروفة فى القرية بتفسير صائب للاحلام وروت لها حلمها فتغير لون المرأة المسنة وقالت :

ـ اللهم اجعله خيرا ... اللهم اجعله خيرا ...

وما كادت تتم كلماتها حتى ضجت السماء بأزيز الطائرات وسمع فى القرية دوى فخرجت المرأتان تستطلعان الامر فسمعتا قائلا يقول :

ـ غارة فرنسية على المجاهدين الجزائريين .

أحست الأم بانقباض .

ـ الحلم ... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

فردت عليها حليمة :

ـ اللهم اجعله خيرا ....

انصرفت الى بيتها مضطربة ولكنها سمعت من يقول :

ـ انهم ضربوا المدرسة فارتدت جارية نحو المدرسة تصيح كالمجنونة .

ـ انى رأيت ابنى يرقص ... انى رأيته يرقص وسمعت من يقول :

ـ مـات صالح ورفاقـه .

فرقصت ... رقصت كأنها دجاجة مذبوحة وهى تغنى :

سالت دماء يا ساقية

سالت دماء يا ساقية

سالت دماء يا ساقية

الناصر بلحاج

تحية مجلة الفكر في سنتها الثلاثين

شعر: الهادي نعمان

هُوَ الفِكْرُ مَا تَأْتِي بِهِ صُحُفُ الفِكْرِ
هُوَ المَجْدُ يَحْدُوهَا بِأَعْوَامِهَا الخُضْرِ
صَحَائِفُ أَمْجَادٍ كُتِبْنَ بِأَحْرُفٍ
عَظِيمَاتِ أَفْكَارٍ لَدَى النَّثْرِ وَالشِّعْرِ
صَحَائِفُ مَجْدٍ تُونِسِيٍّ أَصَالَةً
يُجَدِّدُهَا التَّفْكِيرُ يُنْبُوعُهَا العَصْرِي
أَصَالَتُهَا فِي خِدْمَةِ العُرْبِ بِالحِجَا
وَبِالكَلِمِ المَيْمُونَةِ الخَلْقِ وَالنَّشْرِ
هِيَ الفِكْرُ مِرْآةُ التُّرَاثِ مُجَدَّدًا
بِصَقْلِ الحِجَا الدَّفَّاقِ فِي المَهْمَهِ الوَعْرِ
هِيَ الفِكْرُ مِرْآةٌ لِتُونِسَ فِكْرَةً
مُصَوَّرَةً بِالصِّدْقِ وَالقَلَمِ الحُرّ
بَنَاهَا الحِجَا مَجْمُوعَةً قُدُسِيَّةً
تُنَاضِلُ بِالفِكْرِ الحَصِيفِ مَدَى الدَّهْرِ
لِتَخْلُقَ أَمْجَادًا تُضَافُ إِلَى العُلاَ
مُعَزِّزَةً دُنْيَا الثَّقَافَةِ وَالفِكْرِ
هُوَ الفِكْرُ سَبَّاقٌ لِكُلِّ حَضَارَةٍ
وَفِي صُحُفِ الفِكْرِ السَّبَاقُ إِلَى النَّصْرِ

صَحَائِفُ إِبْدَاعٍ وَأَمْجَادُ أَحْـــرُفِ
تُطَالِعُنَا غُنْمًا لَدَى مَطْلَعِ الشَّهْـــرِ
تَحِيَّاتُ إِخْلاَصٍ إِلَى الفِكْـرِ والعُـــلاَ
أُسَجِّلُهَا شِعْرًا «ثَلاَثِينَ فِي العُمُـــرِ»
هَنِيئًا لكَ العِيدُ الثَّلاَثُونَ مَغْنَمًــــا
حَصِيلَةَ أَمْجَادٍ تُبَشِّرُ مَعَ الدَّهْـــرِ
هَنِيئًا لكَ العِيدُ السَّعِيدُ وَوَاصِـــلِ
مَسِيرَةَ أَقْلاَمٍ وَمَلْحَمَةَ الخَيْـــرِ
رُكُوبُ الحِجَا مَجْدٌ وَمَفْخَرُ أُمَّـةٍ
وَأَنْتَ مَعَ العَلْيَاءِ فِي مَسْرَحِ الخَيْـــرِ
إِلَيْكَ أَسُوقُ التَّهْنِئَاتِ عَرَائِسًـــا
مِنَ النَّغَمِ الوَلْهَانُ بِالحُبِّ لِلنَّصْـــرِ
وَأَنْتَ انْتَصَرْتَ الدَّهْرَ فَوْزًا عَلَى الدُّجَى
وَفَجَّرْتَ يَنْبُوعًا مِنَ النُّورِ فِي الفَجْـرِ
وَأَصْفَى مِنَ الفَجْرِ المُوَلِّدِ لِلضُّحَـى
طُلُوعُكَ فِي الأَمْجَادِ فِي أَيِّمَا سِحْرِ
هُوَ المَجْدُ فِي الأَفْكَارِ تَبْدُو مُضِيئَةً
تُنِيرُ الدُّجَى تُعْطِي الحَيَاةَ إِلَى القَفْرِ
فَيُزْهِرُ خُلْدٌ مِنْ نِضَالِكَ بِالحِجَـــا
وَتُبْنَى صُرُوحٌ مِنْ صَحَائِفِكَ الغُـــرِّ
هُوَ الفِكْرُ وَضَّاحُ الحَقِيقَةِ فِي الدُّجَى
وَأَنْتَ هُوَ الفِكْرُ المُجَدِّدُ لِلفِكْـــرِ

الهادي نعمان

المقدس في شعر الشابي

بقلم : الباجي القمرتي

يمثل شعر الشابي مرحلة ذات شان من مراحل تطور الشعر العربي في تونس وامتدادا لشعر شعراء المهجر . وبقدر ما كان هذا الشعر صدى لطموحات ابناء الصادقية والبعض من الزيتونيين استطاع ان يكون ايضا امتدادا لما كان يدرسه ابناء التونسيين في معهد كارنو من شعر لامارتين والفريد دي موسيه وغيرهما ، وجسرا روحيا وصل الشاعر بارواح مثل روحه مشوقة الى قيم جديدة رانية بشوق طبيعي الى الحركة . لذا كان ديوان « اغاني الحياة » (1) نشيد صنف من الشباب المثقف التونسي الذي بدأت بصماته تلوح في ابرز مظاهر الحياة . ففي المجال الاجتماعي انبثقت الحركة العمالية على يدي محمد علي الحامي (2) وظهرت الدعوة الى تحرير المراة على يدي الطاهر الحداد (3) وفي المجال السياسي ظهر جيل جديد من السياسيين يؤمن بضرورة التغيير وحتمية الحركة كان معظمه قد تثقف في فرنسا ، وتمرس باساليب السياسة فيها . وفي المستوى الثقافي قامت الصحافة بدور جليل في نشر الاشكال الادبية الجديدة والقيم الفكرية الحديثة التي كان يهتز لها هذا الجيل ، كالحرية والعدالة .. فاضحت الثقافة اقرب الى المجتمع والى الشعب . لذا تعد

(1) اعتمدنا في هذه الدراسة الطبعة السادسة الصادرة عن الدار التونسية للنشر سنة 1983 .

(2) محمد علي الحامي زعيم نقابي تونسي أسس سنة 1924 « جامعة عموم العملة » ، توفي سنة 1928 .

(3) الطاهر الحداد (1899 — 1935) زيتوني ونقابي ساهم مع محمد علي في بعث الحركة العمالية بتونس ، له كتابان : العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية . وامرأتنا في الشريعة والمجتمع .

الفترة التى انشأ فيها الشابى شعره متميزة من وجهين : فهى اولا فترة تحول وتغير ، سادتها حدة صراع بين جيلين ، اى بين تصورين فكريين للمجتمع وللحياة : تصور يؤثر المحافظة على البنى التقليدية بمؤسساتها وقيمها المتداولة فهى مقدسة ، وتصور يقدم خطابا فكريا جديدا ويتعامل مع البنى التقليدية بحدة فى المستوى الثقافى والفكرى وبلين فى المستوى السياسى . وهى ثانيا فترة كان معظم اقطاب الدعوة الى التغيير فيها من « الآفاقيين » سواء كانوا من الزيتونيين او من ابناء الصادقية وفدوا على العاصمة وواصل البعض منهم تعلمه خارج البلاد التونسية . هؤلاءهم الذين سيكونون حملة الخطاب الفكرى الجديد فى مستوياته المختلفة : الاقتصادى والاجتماعى والسياسى والثقافى . ومن البديهى الا يكون الشابى بمنأى عن هذه المعطيات العامة التى يعسر ان يفحص شعره دون ان ننزله فيها اولا ، ودون ان نؤطره فى سياق ظروف الشاعر الذاتية ثانيا . على ان هذه الضرورة لا تحتم علينا مصادرة ان نتامل ديوان أغانى الحياة بوضعه فى تيار ادبى معلوم هو الرومنسية . فمثل هذا التصنيف ربما يبدو ضربا من التعسف على دلالة المصطلح ذاته ، اذ الرومنسية اتجاهات متعددة ذات مصادر اوربية مختلفة (4) ، ربما كان تعامل الادباء العرب والشابى بالخصوص معها محفوفا بظروف ذاتية وموضوعية كيفت ادراكه لها مما يؤدى حتما الى تميزها بمياسم خاصة . ولسنا نروم فى هذا الفصل ان نعقد مقارنة بين الرومنسية باعتبارها مذهبا فكريا فى الآداب الاجنبية وفى شعر ابى القاسم وانما الاشارة فقط الى عسر اعتبار هذا المعطى من مصادرات عملنا لحضور نفس شعرى فى الديوان اقرب الى حس الشعر العربى الكلاسيكى ونفسه شكلا ومضمونا . فالديوان وقد احتوى على كل ما عثر عليه من قصائد الى حد الآن يتركب من جزئين : جزء غلب عليه نفس التقليد والمعارضة ويمثل الشابى الشاعر الحدث . وهو الى شعر شعراء البعث اقرب (5) وجزء تميز بتجاوز المماثلة الى ادارك شعرى اصيل ، وخلق فنى متوازن ، وهو تارة شعر شعور

---

(4) انظر كتاب : Van-Tieghem Paul : Le romantisme dans la littérature Européenne Paris Albin Michel 1969

(5) نذكر من هذا الشعر على سبيل المثال لا الحصر القصائد التالية : « الغزال الفاتن » ، « تونس الجميلة » ، « شعرى » ، « صيحة الحب » ، « ليلةعند الحبيب » . والقطع التالية : « اياك » ، و « عود الغوانى » .

صرف وتارة اخرى شعر شعور متأمل فيه اشراقات روحية عزيزة ، وبوارق وعى حسى جليل (6) .

فلئن كان شعر المرحلة الاولى اقرب الى « كد الروية » فان شعر المرحلة الثانية اميل الى « عفو البديهة » . ولا تجعل هذه السمة من شعر ابى القاسم جزأين منفصلين لا يتصلان ففى الديوان باعتباره وحدة متكاملة ثوابت عديدة : اولها طغيان طابع الالم وثانيها حضور القضية الماورائية متمثلة فى الاشكالات المتعلقة بالوجود الانسانى : بالحياة والموت ، بالقضاء والقدر ، بالخير والشر ، بالمصير ، الخ .. وثالثها النفس الدينى السارى فى الديوان ، ويظهر فى حضور متواتر لالفاظ استلهمها الشاعر من المعجم الدينى : معبد – هيكل – وحى – نبى – رب – آلهة – انجيل .. وفى توظيف متميز للميثولوجيا .

تلوح هذه الثوابت موحدة للشعر فى الديوان ، اذ انها ترجعه الى معين واحد هو الشاعر ذاته . الا انها لا تظهر فى الديوان بميسم واحد . فان كان الالم فى شعر المرحلة الاولى تبرما ، فانه فى شعر المرحلة الثانية انتشاء بالكيان الانسانى المأساوى ، وبالقدر الانسانى . وان كان حضور القضية الماورائية فى البداية فى حدود احترام المقدس الدينى فانه اضحى فى النهاية تشككا فى المصادرات الدينية القديمة ، وبالتالى للمقدس الدينى بصفة عامة مما حدا بالشاعر الى افراغ اللفظ المستلهم من المعجم الدينى من دلالته الاصطلاحية واخصابه بمعنى يستقيه من السياق الوارد فيه مع احتفاظه بشحن النفس الدينى .

هكذا يلوح من خلال الطرح الذى اتخذنا والثوابت التى ضبطنا ان قضية المقدس اساسية فى ديوان ابى القاسم . ففيها نتبين مواقف الشاعر من النظام الكونى ومنزلة الانسان فيه ، والضوابط التى تحدد السلوك البشرى ، وتضمن سلامة الانسان ، وترسخ احساسه بالامن فى المستويين الماورائى والمادى .

يعسر ان نحدد بكل دقة ، منذ البداية ، معنى لفظ المقدس . فهو يعنى الحرام ويرمز الى الطاهر ويشير الى الرجس . وهو ايضا كل هذه المعانى

---

(6) نذكر من هذا الشعر على سبيل المثال القصائد التالية : « النبى المجهول » ، « صلوات فى هيكل الحب » ، « الصباح الجديد » ، « نشيد الجبار » ، « الغاب » ..

مجتمعة (7) الا انه ، منهجيا ، تنتفى فى المستوى التطبيقى امكانية الجمع بين كل هذه الدلالات . ولعل لفظ المقدس على غموضه وعسر تحديده مشدود الى المعانى الدينية شدا . فهو كل ما يرتبط بالآلهة ويتعلق بها . وهو كل ما يختص بالعالم السماوى عموما ويلوح فى السلوك البشرى فى الشعائر والطقوس التى بها يحاول الانسان ان يجد الحماية والسكينة والقوة والفعالية والحقيقة فى اجلى مظاهرها . هكذا يضحى المقدس موقفا من الوجود وتصورا لـه وتجربـة دينية لا تستقيم الحياة البشرية بدونها .

على ان دلالة المقدس اوسع من ان تقيد فى الحدود الدينية . فلقد اتسع حقل اللفظ الدلالى نتيجة التطورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية واصبح يستعمل فى سياقات جديدة . ويعنى القيم العليا التى من اجلها يهب الانسان حياته فى العصر الحديث . وبالتالى « فالمقدس هو الكائـن او الشىء او المبدأ الذى يقصر عليه الانسان حياته فيعده مسلما من المسلمات لا يمكن انكاره او نفيه ولا خيانته مهما كان الثمن » (8) ، وهذا المقدس يتطلب كسابقه : « صرامة والتزاما وتفانيا وقوة عاطفة وحرارة ايمان ونفسا صوفيا ايضا » (9). وهو بهذا نوع جديد من التجربة الدينية ومظهر آخر لتصور الوجود البشرى . بهذا التوجه يصبح كل شىء قابلا لكى يكون مقدسا . ولن يكون كذلك الا ان نظرنا اليه « فى صورته المثلى والمجردة (10) ، ووهبناه بالاضافة الى واقعه المادى واقعا آخر غير الاول لا عقليا هو حقيقته الجوهرية . وبذلك يمكـن ان تكون الطبيعة فى التجربة الدينية موحية ببعد ما ورائى فلا يـرى الانسان فيها قيمة محايدة وانما يجدها موحية بما وراء وجودها المادى .

فى هذا الاطار تتنزل دراستنا للمقدس فى مدونة ابى القاسم الشعرية فما هى مظاهر هذا المقدس وخصائصه ؟ وما هى امتداداته الماورائيـة ؟ ثم مـا هى وظيفتـه ؟

لا يمكننا ان نحدد اوجه المقدس عند الشابى بشكل سكونى بـل علينا ان نتتبعها فى تساوقها وتطور تجربة ابى القاسم البشرية والشعرية . لذا يجدر

(7) Chelhod Joseph : Les structures du sacré chez les arabes, Paris, Maisonneuve et Larose 1965 P. 38.
(8) Gallois Roger : L'Homme et le sacré Paris 1939 P. 134
(9) المرجـع نفسـه ص 134
(10) Bergamin José : Le clou brûlant : Plon 1972 P. 43

منذ البداية ان ننبه الى ان مضمون اللفظ سيشهد تغيرا قد يبلغ حد التقابل فى النهاية . خاصة واننا نلاحظ حضورا فى الديوان لبعض ملامح المقدس السائد كما تصورت للشابى نتيجة ممارسته الاجتماعية والفكرية فى مجتمعه، من خلال قصائد متعددة نذكر على سبيل المثال منها « الدموع » و « ياحماة الدين » و « الى الله » و « شكوى ضائعة » و « فلسفة الثعبان المقدس » . ودون ان نراعى فى هذا الحيز من الدراسة مواقف الشاعر منها والتى سنحللها فى قسم لاحق، نرى أن المقدس السائد يستمد ملامحه بالدرجة الاولى من المؤسسة الدينية التى ترعاه متمثلة فى الامام والقس ، وهما رمز هذا المقدس .

ملىء الدهر بالخداع فكم ضلل الناس من امام وقس (11)

وفى الفضاء المتميز الذى يختص به هذا المقدس وهو الزوايا

فو الحق ما هذى الزوايا واهلها سوى مصنع فيه تصاغ السخائم (12)

فكان بذلك مقدسا مقننا فى اطر معينة ذات تأثير اجتماعى وفكرى عميق ساهمت بقسط كبير فى ترسيخ تصور معين للنظام الكونى غلبت عليه سمات مخصوصة مما جعلها تعتبر كل دعوة الى التغيير خطرا عليها (13) ، وعلى ابعاد مقدسها الروحية . لان الامر يؤدى حتما الى الاخلال بمنظومتها. وقد بوأت هذه الاطر الاله منزلة عليا تتجلى فيها العظمة المستمدة من جلال القوة ، وسلطان الابدية . فهو الخالق القهار الغلاب المرعب سلاحه فى ذلك قضاء ، وقدر ، وموت ، وزمن ، حتى انه تصور للشاعر وحشا فاتكا حذرا :

هذا هو اللغز عماه وعقده على الخليقة وحش فاتك حذر (14)

---

(11) « قصيدة الدموع » ص 72 .

(12) قصيدة « يا حماة الدين » ص 162 .

(13) يتجلى هذا المظهر من خلال رد فعل بعض شيوخ الزيتونة تجاه شعر الشابى . راجع فى هذا الشان مقال توفيق بكار : مشاركة فى دراسة ابى القاسم الشابى حوليات الجامعة التونسية عدد 2 سنة 1965 ص 191 - 192 .

(14) قصيدة « شكوى ضائعة » ، ص 268 .

وتجلى له شعبانا كسته قوته هالة من القدسية فى قصيدة « الثعبان المقدس » التى كان التداخل فيها جليا بين التصور الماورائى لنظام الكون وطبيعة العلاقة بين العابد والمعبود من ناحية وطبيعة العلاقات الانسانية فى الواقع البشرى المادى من ناحية اخرى . فلاجل ذلك سجد الانسان وعبد وتذلل وتضرع خوفا وهلعا ورعبا واستسلاما فسعى الا يكون الا فى ضوء هذا السلطان ، وهذه المشيئة الالاهية لان كل تجاوز لها يعد مروقا ، واخلالا بالنظام ، وولوجا فى حيز الفوضى اى عالم الدنس .

انى الاه طالما عبد الورى ظل وخافوا لعنتى وعقابى (15)

لذا كان دور الانسان دوما خضوعا يجد فيه منزلته فى النظام بالعبادة حتى لا تقع عليه لعنة الارباب . وكلما اثم ، وكل اثم هدم للنظام ، قدم القرابين تكفيرا .

وتقدموا لى بالضحايا منهم فرحين شان العابد الاواب (16)

او رجا مغفرة .

ما الذى قد اتيت يا قلبى الباكى ؟! وماذا قد قلته يا شفاهى

يا الاهى قد انطق الهم قلبى بالذى كان .. فاغتفر يا الاهى

قدم الياس والكآبة داست قلبى المتعب الغريب الواهى

فتشظى وتلك بعض شظاياه فسامح قنوطه المتناهى (17) .

وظاهرة الغفران تشير الى الوجه الآخر للالاه . وجه الرحمة ، وتلمح الى ديمومة الاقرار بالطاعة. وهكذا يلوح ان مصدر ايمان الانسان خوف لا محبة ، وسعى مستمر الى طاعة مؤدية الى سعادة السكون ، ورضى بالقدر الالاهى مجسما فى حقيقة الموت الازلية ولغز الوجود كله ، وفى احداث يرى الانسان نفسه بحكم هذا التصور عاجزا عن دفعها . فباحترام الناموس الالاهى متمثلا

(15) قصيدة « فلسفة الثعبان المقدس » ص 274 .
(16) المرجع نفسه .
(17) قصيدة « الى الله » ص 144 .

في المحرمات يحافظ الانسان على النظام وديمومة الحياة . لذا قدر على الانسان ان يسكن ان اراد مصيره خيرا . فسر الحياة محافظة على النظام وسكون .

لذا كان هذا المقدس السائد بحكم هذا التصور يسلب الانسان ارادة الفعل فيه ، والاحساس بالقدرة ، والطاقة على الحركة ، ولكن يهبه في الآن نفسه الاحساس بالامن والطمأنينة والسلامة . كما كان ايضا عاملا مهما في بناء الواقع البشري (الاجتماعي) ، اذ نتبين من خلال الديوان وخاصة من خلال قصيدة « الشعبان المقدس » ان هيكل الواقع المادي يماثل التصور الذي بينا لبنية النظام الكوني . لذلك نرى التناظر قائما بين الاله والحاكم المستبد من ناحية والمعبود والمحكوم من ناحية اخرى ، فقام الحاكم مقام الاله واتخذ المعبود منزلة المحكوم وهكذا ارتدت العلاقة الاجتماعية مبنية على طاعة المحكوم العمياء للحاكم الذي استمد بذلك « ألوهية » مخصوصة فيؤتمر بأمره ويقضي بقضائه وتجب طاعته وعبادته واضحى ، بهذا الوجه ، السلوك الاجتماعي ، والفعل ، فرديا كان أم جماعيا منعدم الجدوى والفعالية ، ان خرج عن هذا الاطار خاصة .

لهذا التطابق بين التصور الماورائي والواقع المادي في الحيز الذي حللنا من شعر الشابي دلالتان خطيرتان : فهو من ناحية يعبر عن ان السلوك الفردي او الجماعي في المجتمع لم يكن بمعزل عن المعتقد الماورائي الشائع والذي يمثله من سماهم الشابي « حماة الدين » (18) . وهو من ناحية اخرى يبين لنا ان الواقع المادي هو ايضا بشكل أو بآخر انشاء الاهي وليس انتاجا بشريا كان الانسان مصدره ومحوره وبالتالي المسؤول عنه . فكان ان سلب الانسان فيه قدرته على الفعل الخلاق والحركة ونفيت فيه شدة العزم وباسه ، فارتد سكونا موتا وتذللا فكان في يقظته نائما وهذا المعنى كثير التردد في الديوان ، ونجده على سبيل المثال لا الحصر في قصيدة « الى الشعب » (19) حيث يقول أبو القاسم .

أين عزم الحياة لا شيء الا ... الموت والصمت والاسى والظلام
عمر ميت وقلب خواء ... ودم لا تثيره الالام
وحياة تنام في ظلمة الوادي ... وتنمو من فوقها الاوهام

(18) قصيدة « يا حماة الدين » ص 161 .
(19) قصيدة « الى الشعب » ص 246 .

كما يقول ايضا فى قصيدة « الدنيا الميتة » (20) .

وارى نفوسا من دخان جامد   ميت كاشباح وراء ضباب

نشأ أبو القاسم فى هذا الاطار ، ولا شك انه اثر فيه بوجه من الوجوه ، على الاقل فى حضور النفس الدينى من خلال رؤيته للموجود ، وتميز المجال الذى يحيا فيه شاعرا بالميسم الروحى ، الا ان تجربته البشرية ، ورهافة احساسه ، وميله الفطرى الى الحزن ، وكذلك موت ابيه ، ومرضه وقد لازمه ملازمة ، جعلته مجتمعة يتجاسر بالسؤال ورد فى صيغة الشكوى وكانت بذلك بداية الحركة التى وافقت مرحلة الشباب ، التى يطغى فيها القلق ، ويشتد الرفض .
وقد تبلورت الشكوى ، وهى متواترة فى معظم قصائده وحتى فى بعض رسائله فى عدة مظاهر لم تتجاوز فى البداية التعبير عن الموقف الفردى لتصبح اخيرا افصاحا عن موقف بشرى عام هو نتاج نضج التجربة الفردية التى اتسعت ارجاؤها فكانت صدى النفس الانسانية الحرى.وتجتمع كل هذه المظاهر فى احساس الشاعر الذاتى بوطأة القدر متجليا فى صور شتى، وهو احساس لازمه طول حياته وساهم بقسط كبير فى تكييفها. فقد عاش ضيمه ولعله تمرس به وخبره فعبر عنه فى احدى رسائله بقوله : « ان افكارى مبلبلة مضطربة فان زوجتى مريضة من زمان وهى الآن تحت المعالجة كما ان جلال مريض بعينه مرضا اتعبه ولا ادرى متى تهادننا احداث الزمان » (21) . وقد اصل هذا الشعور فى ذاته تاصيلا موت ابيه فطفق كالطائر المكسور يئن : فى قصيدته « يا موت » (22) .

يا موت قد مزقت صدرى   وقصمت بالارزاء ظهرى
ورميتنى من حالق   وسخرت منى اى سخر

فارتد بذلك شعوره بالامن خوفا ، وبالاطمئنان حيرة خلخلت ايمانه بمقومات المقدس السائد ومصادراته . وانقلب الشاعر فى بعض قصائده ، وتذكر على

---

(20) قصيدة « الدنيا الميتة » ، ص 270 .
(21) توفيق بكار : « مشاركة فى دراسة ابى القاسم الشابى » . حوليات الجامعة التونسية ع 2 س 1965 ص 230 والشاهد لمحمد بشروش أورده صاحب المقال تحت عنوان « صفحات من كتاب السنة الاخيرة من حياة الشابى بمناسبة مرور اربعة اعوام على وفاته » .
(22) قصيدة « يا موت » ، ص 137 .

سبيل المثال منها « الى الله » و « شكوى ضائعة » و « فلسفة الثعبان المقدس » يعاتب الالاه لصدوده عنه ، ويؤاخذه لقسوته ، ويتبرم به لسهوه عنه ، فى امتداد شعرى متناغم ، بلغ به حدود التساؤل عن حقيقة وجود العطف الالاهى الذى يضمن للانسان الامن والحماية ، وعن حقيقة وجود الوجه الآخر للالاه ، وجه الرحمة .

يا ضمير الوجود يا عالم الارواح يا ايها الفضاء الساهى

يا خضم الحياة يزخر فى الآفاق فى الترب فى قرار المياه

خبرونى هل للورى من الاه ــ راحم ــ مثل زعمهم اواه

... اننى لم اجده فى هاته الدنيا فهل خلف افقها من الاه (23) .

وهكذا لاح الالاه احادى الوجه ، قسوة محضا ، عمقت شعور الشاعر بالظلم الالاهى . فاحداث الزمان لم تكن نتيجة اثم اقترفه او ذنب ارتكبه وانما هى اس من اسس الوجود . تلك هى حدود النظام يسقط معها معنى الغفران ، ويستحيل التوسل ضربا من العبث ، ويفقد حتى العقاب معناه .

واذا سالت : لم الوجود وكله هم مذيب ؟

قالت : نواميس السماء قضت ومالك من هروب

آه على قلبى وان شقيت كشقوته قلوب

لم تقترف اثم الحياة وكان ماواها اللهيب (24) .

وذاك هو العبد ، روعت منزلته الشاعر ايما ترويع ، فاضحى القدر الانسانى بالنسبة اليه ماساة ، وكانما كتب على الانسانية ان تشقى . وانى لها ان تدرك ذلك ، فلقد صاغتها مؤسسات المقدس السائد صياغة حتمت عليها الا تحيا الا فى السكون ، ساجدة وكانها لا تجد كيانها الا فيه ، وسعادتها الا به ، فاضحى الفضاء المقدس ، متمثلا فى الزوايا ، « مصنعا تصاغ فيه السخائم » (25) وامسى الناس ، وقد اعتادوا الركوع ، عبيد الحياة « جبلتهم من الشر » (26) واستحال

---

(26) قصيدة « ابناء الشيطان » ص 176

(23) قصيدة « الى الله » صص 143 ــ 144 .

(24) قصيدة « نشيد الاسر » ص 121 .

(25) قصيدة « يا حماة الدين » ص 162 .

خطاب الامام والقس « ضلالا » (27) . هكـذا انتقل الوجود مـن انظـام الى الفوضى ، وانقلبت الحياة صحراء قاحلة ، وسخافة ، والانسان عبد الحياة ابن الشيطـان (28) .

يـا صـاح ان الحيـــاة قـفـــر مـــروع ، مـاؤه سـيـــراب (29)

سخـافـــة دنيـاكـــم هـــذه تائهـــة في ظلمـة لا تخـــد (30)

بهذا الوجه هوى معتقد المقـدس السائد فى نظـر الشابى ، لانـه لا يضـع الانسان فى مأمن من الحوادث ، اذ هو نتاج عمل ذاتى ، بشرى يصبح بمقتضاه العالم عارضا . فانقطعت بذلك وظيفة مؤسساته ، واستحالت حيـاة الشاعـر تهياما روحيا ، وسعيا موصولا لتنزيل ذاته من جديد ضمن نظام كـونى اصيل يستجليه « كشىء مغاير كليا للحياة البشرية العادية الدنسـة » (31) ويجده انشاء الاهيا محضا ـ وما هو فى الحقيقة بذلك لانه اسقاط ذاتى على واقع بشرى موضوعى ـ وكان رحيل الشاعر الدائم بحثا عن وطن . ولقد يستبد به فى كل ذلك اليأس ، او قد يعييه ، فيؤوب الى نفسه يشكوها اليها :

ايهـا السارى مع الظلمة فى غير اناة

مطرقـا يخبط فى الصحراء مكـروت الشكـاة

تهـت فى الدنيا وما ابت بغير الحسـرات (32) .

وقد تأخذه نشوة الامل فيطفق منشـدا

اذا طمحت للحياة النفوس فلا بد ان يستجيب القدر (33) .

كذا كانت الحركة بشوق طبيعى .

(يتبـع)

البـاجى القمـرتى

(27) قصيدة « الدموع » ص 72 .

(28) قصيدة « ابناء الشيطان » ص 176 .

(29) قصيدة « الى عازف أعمى » ص 115 .

(30) قصيدة « زوبعة فى ظلام » ص 256 .

(31) Peter L. Berger : La religion dans la conscience moderne - Essai d'analyse culturelle - traduction de Joseph Feisthaner Edition du Centurion - 1971 P 146

(32) قصيـدة « الى قلبى التائه » ص 133 .

(33) قصيدة « ارادة الحياة » ص 240 .

سجـــارة

شعر : علي دب

قلبي ، فراغ ، واسعٌ
أيتها « الطفلة »
مُدِّي نَفَسَاً
هذا فمي
والخيمة الشهباءُ تخفينا
وجَمْرٌ في حواشيك
يغطّيه الرمادْ

* * *

– كم تعانقنا !
وأغفو .. !
– « عندما تسكُتُ أنفاسك
يرميك أعزّ الناس .. »
قالت ؛

* * *

غيمة زرقاء ذابتْ
قبلةٌ أخرى انتهتْ
سيدةٌ تُلْقَى إلى مزبلة
والعمر يُلقيني إلى أخرى .

تونس 1984/12/8

حول كتاب : " مزالي .. الأصالة "

بقلم : مصطفى عطية

كنت منكبا بحذر شديد على التهام مقال اكتشفت وجوده بالملحق الثقافي لجريدة « العمل » .. عندما هزني القيم بعنف .. وجذب مني ما كنت أطالع ليمزقه بشماتة بالغة .. وحنق شديد متعجبا من جرأتي على مطالعة جريدة في قاعة المذاكرة . كان نظام التعليم يمنعنا من التعامل مع غير الدروس .. حتى كتب المطالعة كانت محرمة أيضا !! في تلك الفترة كنت في الرابعة عشرة من عمري .. وقد بدأت أحس بشيء يدفعني لالتهام كل ما يحبر عن رجل قرأت له مرة فعلق بذاكرتي وسكن ذاتي .. ولم يكن المقال الذي منعني القيم من قراءته بقلم هذا الذي ملك عقلي .. ولكنه كان من وضع المرحوم محمد الهادي العامري .. الذي كنت أعلم أن « صديقي » قد تتلمذ عنه !

ومن حسن حظي أني وجدت في مكتبة أحد أقاربي ما يشفي غليلي ... حيث بدأت التهم ما احتوت عليه من الاعداد الاولى لمجلة « الفكر » .. وتزايد ولعي بهذا الرجل بتزايد التهامي لكتاباته ٠٠ حتى جاء اليوم الذي عثرت على اسمه ضمن شخصيات البرنامج الادبي للسنة الدراسية .. ليس باستطاعتي أن أصف شعوري في تلك اللحظة ولكني اكتفي بالاشارة الى أني قد منيت نفسي باحتلال المرتبة الاولى في الادب في ذلك الموسم الدراسي .. وتواصلت حكايتي مع آثار هذا الرجل كأحلى ما يكون التواصل .. أتيت فيها على أغلب ما كتب .. حتى عندما كانت دراستي في التاريخ والجغرافيا بالجامعة تحتم علي تخصيص كل أوقاتي لالتهام المراجع المبرمجة .. كنت أسعى بكل الطرق لالتهام ما كان يحبره شهريا بمجلة « الفكر » .. وعندما انتهى زمن الدراسة .. دخلت جريدة « بلادي » محررا ثم رئيسا للقسم الثقافي .. وصادف دخولي بلاط صاحبة الجلالة .. اعتلاءه منصب الوزارة الاولى .. كانت الصدفة عجيبة ٠٠ ونقط الالتقاء الروحي مثيرة ٠٠ ونشرت مرة أولى قراءة لاحدى خطبه على أعمدة الجريدة .. فأحس المدير الاستاذ الهادي الغالي وقتها ـ وبحدس

صحفي خاص ـ أني أحسن الابحار عبر تأملات هذا الرجل وأفكاره .. فأمرني بأن أواكب كل خطبه وأعيد قراءتها لنشرها في قالب تحليلي .. وكان هذا أروع تتويج لي ببلاط صاحبة الجلالة !

ورغم المامي ـ من خلال هذه المهمة الجديدة ـ ببعض ما كنت أطمع لمعرفته من خصال هذا الرجل .. فان لهفتي لمزيد من المعرفة لم تنقطع .. كنت اريد أن أعرف عنه كل شيء .. وكنت اريد أيضا أن أعرف آراء الناس فيه .. هل تطابق أحاسيسهم أحاسيسي ؟.. وجاء اليوم الذي صدر فيه كتاب « حديث الفعل » .. استغللت الفرصة لاشباع نهمي وتلبية رغبة عانقت روحي .. لكن حرصي الشديد على معرفة آراء الآخرين فيه أرغمني على مطالعة كل ما كتب عن هذا التاليف ، في الصحف الوطنية والعالمية .. ثم جمعت كل ذلك .. وكتبت مقالة تقييمية لهذه الآراء (1) .. ومن الجائز الاعتراف بأن هذه الآراء المختلفة والاحاسيس المتعددة قد التقت عند خصال كبيرة اعرفها لمحمد مزالي.. لكن احساسي .. ربما اختلف في عمقه عن أحاسيسهم .. فأنا من جيل يختلف عن أجيال كل من شاءت الصدف أن كتبوا عن هذا الكتاب .. جيل راى النور بانجلاء ظلام الاستعمار .. جيل تربى منذ الصبا على خصال هذا الرجل .. أفكاره ومثله.. أحلامه وطموحاته.. فانساق مع هذا المد الرائع نحو الارتقاء.. وغدا الرجل مثالا .. نطمح الى أن نحاذيه .. وعندما صدر أخيرا تأليف الاستاذ المنصف الفيتوني « مزالي .. الاصالة » جامعا فيه انطباعات بعض الذين عرفوا مزالي وأحبوه .. كنت أبحث بين صفحاته عن انطباعات واحد من جيلي .. أي جيل الاستقلال .. دون أن أكون قد أهملت آراء الآخرين .. وعثرت على ضالتي في انطباعات السيدة « رجاء العلمي » هذه التي من أندادي .. فتنفست الصعداء .. انها انطباعات جيل .. وليست انطباعات أفراد جيل أخذ له مثالا في الحياة .. محمد مزالي .

مصطفى عطية

---

(1) مجلة « الفكر » السنة 29 ـ العدد 9 ـ جوان 1984 « حديث الفعل في الصحافة الوطنية والعالمية » ص. 128 ـ 129 ـ 130 ـ 131 .

ملكة الماء

شعر: الحبيب الهمامي

(1)

اللَيْلَةَ أكْمَلَتُ الكَوْنْ
عَادَ العُشَّاقُ إلى الشَّجرِ المُبْتَلِّ بِأسْرَارِ الليْلِ
عاد الشعراءُ إلى دَمِهِمْ
والبحرُ إليَّ .
وعادَ الشاعر ينبضُ فِيَّ
وَعَادَ الشَّكْلُ إلى الشَّكْلِ
وَاللوْنُ إلى اللَّوْنْ
اللَّيْلَةَ أكْمَلْتُ الكَوْنْ
جاءَتْنِي مِنْ نَبْضِ المَاءْ
جاءَتْنِي مِنْ أغْوَارِ الغَامِضْ
مِنْ شَمْسٍ لا تُشْرِقُ إلاّ مِنْ أعْمَاقِ نَبِيٍّ
جاءتْ مِنْ عُرْيِ الفرحِ المَمْنُوعِ
وَجاءَتْ ..
لا ..
بَلْ جاءَ دَمِي
وَدَمِي شَاءْ

جَاءَتْنِي مِن نَبْضِ المَاءْ

* * *

(2)

لمَاذَا أَمُوتُ وَلاَ أَكْتَفِي
لمَاذَا أظَلّ أُعَانِيك
أُخْرِجُ رُوحِي مِنَ الصّدَإِ المُرّ
أفْتَحُهَا شُرْفَةً
لأَرَاكِ تُعِدّينَ لِي قَهْوَةً بالحَنَانِ
وَأسئلَةً عَنْ دَمِي المُتَحَرّرِ مِنّي المُسَافِرِ فيكِ
عَلَى شَغَفِي
بِحُمُورِكِ مَفْتُوحَةَ الحُسْنِ
بَيْنَ ذِرَاعَيْكِ يَا لَهَفِي !
سُرُرٌ مِنْ عَجَبْ
وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ،
وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ
وَمَلاَئِكَةٌ مِنْ ذَهَبْ
وَعِنَبْ
يَا سَلاَمَ التّعَبْ !
عَلَيَّ
وَفِيَّ
وَإِنِّي أَمُوتُ وَلاَ أَكْتَفِي
وَمَنْ قَالَ : إِنّ المُحِبّ إِذَا مَا انْتَهَى يَخْتَفِي ! ؟

الحبيب الهمامي

الشعر على الشعر في « أغاني الحياة »

بقلم : محمد القاضي

المقدمـــة

اننا ننطلق فى هذا العمل من فرضية ان الشعر ـ والاتصال عموما ايا كانت الطريقة المتوخاة لأداء الرسالة ـ ممارسة قائمة عـلى جملة مـن المصطلحـات (Codes) تواضعت عليها فئة من الناس يقل عددها او يكثـر باختـلاف الازمنة والامكنة . ولا يمكن ان يتم الابلاغ الا متى كان القارىء او المتلقى قادرا على فك الرموز التى يطرحها الكاتب او الباث . وحين لا يرتكـز الترميز عـلى منظومة متداولة تصير عملية الابلاغ مهددة فى جوهرها .

ولاشك ان دور المصطلح مرتبط بطبيعة الخطاب اذ ان اللغة تخضع لتشكيل متميز فى الشعر ولذلك فان للمصطلح قيمة أكبر فى تمثل الخطاب الشعرى. ومن ذلك تولدت ضرورة اخراج تلك المصطلحات من كمونها حين يكون ابلاغ المضمون غير متاكد .

والتراث الشعرى العربى لا يخلو من ابيات عن الشعر الا انـه لا يرقى الى مستوى تخصيص قصائد كاملة وانما هى اشارات مبثوثة . وما يهمنا فى ظاهرة الشعر على الشعر فى ادبنا القديم هو انها تحيل ـ فى الغالب ـ عـلى سجـل عام يقوم على تناغم بين قيم الفرد الباث وقيم المجموعـة المتلقيـة فـلا تناقض ولا اشكـال .

ومنذ العصر الجاهلى اشار عنترة الى رسوخ التقاليد الشعرية العربية التى جعلت الشعر يتحرك فى مجال ضيق : « هل غادر الشعراء من متردم ؟ » وبعدما يناهز اربعة قرون كان المتنبى يعبر ـ فى معرض الفخر ـ عن هيمنة شعره الذى قام على جملة من المصطلحات التى تاسست وصارت تستطيع اختراق الزمن :

وما الدهر الا مـن رواة قصائـدى   اذا قلت شعرا اصبح الدهر منشدا

وتجاوز كل الاستثناءات لتعم كل الناس :

انـا الـذى نظـر الاعمى الى ادبى   واسمعـت كلماتى مـن بـه صمـم

ولا نكاد نجد طرحا لبعض ثوابت الشعر العربى قبل ابى نواس الذى سخر من وقوف بعض معاصريه على الاطلال :

عـاج الشقى عـلى رسم يسائلـه   وعجت اسـال عـن خمارة البلـد

ودعا الى التنكب عن الغزل :

لا تبـك ليـلى ولا تطـرب الى هند   واشرب على الورد من حمراء كالورد

ويمكن ان نفهم ذلك بربطه بالخمريات وهى مضمون تجديدى كرس له أبو نواس جزءا هاما من شعره جاعلا منها غرضا مستقلا بعد ان كانت مندرجة فى الاغراض الاخرى . و « هذا يعنى ان أبا نواس لا يرث بل يؤسس ولا يكمل بل يبـدأ » (1) .

وقد ظل التصور العام للشعر مسايرا لنظام الاغراض ـ من مدح وهجاء ورثاء وفخر وغزل .. ـ الى عصر النهضة . فلم يكن هناك مبرر لاعادة طـرح مفهوم الشعر شعرا لان التواصل كان قائما بين الشاعر من جهة والقارىء او السامع من جهة اخـرى .

من هنا تنبجس شرعية الحديث عن الشعر على الشعر فى ديوان « اغـانى الحياة » (2) . فنحن فى هذا الديوان نقف امام طغيان الاشارات الى الشعر شعرا سواء كان ذلك فى نصوص مخصوصة او فى شكل ابيات محدودة العدد وردت ضمن نصوص فى غير موضوع الشعر . ولعل ما يدعو الى الاستغراب كثافة هذه النصوص التى تتجاوز نسبتها مجموع قصائد الديوان الثلث . وهـذه النسبة تحدو بنا الى العدول عن التفسيرات السطحية اذ من الواضح ان هذه القضية كانت جوهرية بالنسبة الى الشابى . واضافـة الى ذلـك فان الفترة

(1) ادونيس : الثابت والمتحول . الجزء الثانى : تاصيل الاصول . دار العودة بيروت . الطبعة الثانية . 1973 . 326 ص . ص 109

(2) اعتمدنا فى هذا العمل ديوان « اغانى الحياة » الدار التونسيـة للنشر . 1970 ـ 307 ص .

الوجيزة التي كتبت فيها قصائد هذا الديوان (3) تزيد الامر تعقيدا لانها تشير الى ان قضية الشعر كانت هاجسا يلح على الشاعر .

ومنذ البداية يمكن ان نشير الى اننا لا ننوى استخراج مفهوم الشعر عند الشابى من خلال كل كتاباته ولا من خلال كل قصائد ديوانه بل سنعكف على القصائد التي ورد فيها الحديث عن الشعر بالاسم او بالكناية اذ اننا نميل الى الاعتقاد ان النصوص التي اغفل فيها الشابى ذكر الشعر تحيل على مضامين تاسست عبر ما كتبه الشابى او بعض معاصريه او انها تعتمد مصطلحات متداولة في الموروث الشعري يمكن للقارىء ان يفكها وبالتالي تصبح الرسالة مفهومة . ولذلك فكلما اغرق الرمز في الغموض حاول الشاعر توضيحه وابراز مستنداته . ومن هنا فاننا حين نعمد الى استخراج هذه الرموز نكون ابعد عن التاويل واقرب الى اهتمامات الشاعر .

ولابد من الاشارة - في هذا المقام - الى ما يحيط بهذا الموضوع من عقبات منهجية لعل اولاها صعوبة تصنيف الشعر على الشعر في « اغاني الحياة » اذ الى جانب القصائد التي خصصها الشابى للحديث عن الشعر نجد شذرات منبثة في نصوص اخرى كثيرة من الديوان وفي بعض الاحيان لا نجد ذكرا للفظة « شعر » الا اننا نلمس في السياق ما يؤكد ان موضوع الحديث انما هو الشعر .

فاذا تجاوزنا هذه العقبة وجب علينا ان نحاول ايجاد نسق نستطيع من خلاله تحقيق غايتين :

- الالمام بكل ما له صلة بمفهوم الشعر كما ذكره الشابى في الديوان .
- ترتيب عناصر هذا المفهوم في اطار منظومة متكاملة .

ومتى تم لنا ذلك حاولنا الاجابة عن سؤال رئيسي هو : لماذا كتب الشابى الشعر على الشعر ؟ وسيدعونا ذلك الى وضع هذه النصوص في اطارها التاريخي لتحسس وجود التقارب بينها وبين الرومنطيقية الاوربية التي تسربت الى الادب العربي قبيل دخول الشابى مرحلة الكتابة وبين النتاج الشعري العربي في المهجر والمشرق والمغرب .

(3) عدا القصيدة الاولى المؤرخة في 23 فيفري 1923 والثانية والثالثة في غرة اوت و 2 اوت 1924 تنحصر القصائد المنشورة في الديوان بين 1925/4/2 و 1934/8/20 .

ـ 1 ـ مظاهر ورود الشعر على الشعر في « اغاني الحياة »

ان الشعر على الشعر ـ فيما نفهم ـ يعني اساسا جملة النصوص الشعرية التى اتخذ الشعر فيها موضوعا للكتابة . وفى ديوان « اغانى الحيـاة » نجد عددا من القصائد التى تتحدث عن الشعر او الشاعر بصفة خاصـة . وهـذه النصوص هى :

(1) شعـرى ص 26 ـ 27 .
(2) يا شعر ص 55 ـ 63 .
(3) اغنية الشاعر ص 101 ـ 102 .
(4) قلت للشعر ص 127 ـ 129 .
(5) احلام شاعر ص 171 ـ 172 .
(6) نشيد الجبار ص 256 ـ 258 .
(7) قلب الشاعر ص 262 ـ 263 .

ومجموع ابيات هذه القصائد 233 بيتا اى ان نسبتهـا الى مجمـوع ابيـات الديوان ـ وهو حوالى 2700 بيتا ـ تساوى 8،59 ٪ اى ما يقارب العشر .

وبعد ان حذفنا عبارة « ليت شعرى » التى وردت 11 مـرة فى الديوان (4) وذلك لان المعنى الذى تفيده (تمنى المعرفة) لا علاقة له بالشعر اطلاقا حاولنا احصاء المرات التى ورد فيها ذكر لفظة « شعر » او « شاعر » أو « شعرى » فى هذه القصائد وفى بقية قصائد الديوان فكانت النتيجة التالية ، وقد رمزنا فى الجدول الموالى الى القصائد المشار اليها آنفا بارقامها :

	(1)	(2)	(3)	(4)	(5)	(6)	(7)	المجموع	في بقية الديوان	المجموع العام
شعـر	8	13	3	6	ـ	ـ	ـ	30	19	49
شاعـر	ـ	ـ	1	ـ	1	ـ	1	3	18	21
شعـرى	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	0	7	7

---

(4) فى الصفحات 20 و 44 و 123 و 133 و 167 و 231 و 289 و 290 .

ونستدل من هذا الجدول على ان النصوص السبعة المشار اليها لا تكفى لتقديم صورة عن « الشعر على الشعر » فى ديوان « أغانى الحياة » اذ ان بقية القصائد تتضمن اشارات الى الشعر لا ينبغى اغفالها . ومن هنا ارتاينا ان ندرس ظاهرة الشعر على الشعر من خلال الديوان كله دون الاقتصار على نصوص مخصوصة .

ثم اننا نظرنا فى قضية التسمية فوجدنا ان الشاعر يمكن ان يصرح بكلمة « شعر » او باحدى مشتقاتها ويمكن ان يكنى عنها بكلمة اخرى تفيد معناها . ولكن من المهم ان نشير فى هذا المقام الى صعوبة واجهتنا فى هذه العملية . فحين ناخذ – على سبيل المثال – كلمة «نشيد» نجدها فى بعض الاحيان تتلبس معنى الشعر كما ورد فى « صلوات فى هيكل الحب » =

انت تحيين فى فؤادى ما قـ ـمات فى أمسى السيد الفقيد
[...] وتبثين رقة الشوق والاحلام والشدو والهوى فى نشيدى (5)

الا انها تتخذ احيانا اخرى معنى قريبا من الصوت او الايقاع او الغناء اطلاقا كما نجد فى قصيدة « تحت الغصون » =

فـاذا الكـون قطعة من نشيد علوى منغم موزون (6)

وبعد استقراء هذه الالفاظ استطعنا جمعها فى هذا الجدول الـذى لا يمكن بحال ان يعتبر نهائيا لان انتقاء هذه المفردات يحيل على جملة من المصطلحات هى التى تسطر للقراءة تخومها وهى متغيرة من قراءة الى اخرى =

المصطلح	عدد مرات الورود فى الديوان
انشـــودة	27
نشيـــد	25
غنـاء ومشتقاتها	23
الاغراض الشعرية	9
غـزل ومشتقاتها	6

(5) الديـوان ص 184 .
(6) م. ن. ص 245 .

مدحــة	I
رثـــاء	I
مرثيـــة	I
الشـــدو	5
اغـــرودة	4
صـــوت	4
قصيـــد	3
لحـــن	2
قـريـــض	2
المجمـوع	I04

وسنتعامل مع هذه الالفاظ باعتبارها تندرج في موضوعنا الاصــلى « الشعر على الشعر » . وبهذه الطريقة فان القصائد التى تدخل في حيـز عملنا يبلـغ عددها 63 من مجموع I09 قصيدة يضمها الديوان اى اكثر من النصف .

فاذا تناولنا كلمة « شعر » ومشتقاتها في « اغاني الحياة » لاستقصاء الصيغ التى وردت فيها لاحظنا ان هذه اللفظة قد وردت 49 مرة بهذه الصيغ =

يا شعـــر	20 مـــرة
الشعـــر	I2 «
يا ربـــة الشعـــر	3 مرات
شعـــرى	3 «
شعـــر	مرتـــان
شعـــرك	مرة واحدة
عرائس الشعـــر	« «
عروسة من غانيات الشعر	« «

عـرائس الاشعـار « »

يا طائر الشعر « »

بنـات الشعـر « »

حيـاة شعـر « »

شعـر السعـادة « »

شعـر الدمـوع « »

ويمكن ان نخرج من هذا الاحصاء ببعض النتائج =

1) هيمنة صيغة النداء « يا شعر » التى وردت بنسبة تساوى 40،81 ٪ .

فاذا اضفنا الى عبارة « يا شعر » عبارتين اخريين استهلتا بحرف النداء وهما « يا ربة الشعر » (3 مرات) و « يا طائر الشعر » (مرة واحـدة) اصبحت نسبة عبارات النداء 48،96 ٪ اى ما يقارب النصف . وهذه الصيغة على غاية من الاهمية لانها تدل على ان الشاعر يتخذ من الشعر مخاطبا ، ولعل ذلـك متأت من ايمانه بشعر جديد وخيبة امله من بقاء مصطلحات هـذا الشعر بعيدة عن ادراك القراء . كما ان هذا التواتر يمكن ان يقـوم بالنسبة الى الشاعـر مقـام المتنفس فعلاقاته بـ « الشعب » وبالقراء على وجه التخصيص متازمة وهو لا ينى يشعر بثقل الغربة الروحية التى كان يعيش فيهـا وهى غربة منشؤهـا هذا الشعر . ومن هنا كان حرف النداء « يا » صلة وصل بين الشابى وبين الشعر ، ومحاولة لكسر الطوق الذى كان يعيش فيه ، وتاكيدا على وفائه لهـذا المفهوم الجديد للشعر ، ومحاولة استكناه جوهره .

2) وردت كلمة « شعر » فى تركيب اضافى 15 مرة اى بنسبـة 30،61 ٪ . وهى تقارب نسبة الثلث . الا اننا يمكن ان نميز فى هذه العبارات ضربين =

– ففى ست منها نجد الشعر مضافا .

– وفى تسع منها يصبح الشعر مضافا اليه .

الا ان نصف الحالات التى جاء فيها الشعر مضافا نجده قد اضيف الى ضمير المتكلم : « شعرى » . وهذا يشير الى علاقة ملكية . الا ان ما يمكن ان يستنتج

من هنا هو ان هذا الضمير المتصل يرسم الحدود الفاصلة بين شعر الشابي وشعر غيره . مما يؤكد على الطابع الخاص الذى كان الشابي واعيا بـان شعره يتصف به .

اما فيما يخص العبارات التسع التى وردت فيها كلمة « شعر » مضافا اليه فقد لاحظنا ان سبعا منها تربط بين الشعر وبين مصادر الالهام =

يـا ربـة الشعر	(ثـلاث مـرات)
عـرائس الشعر	(مـرة واحـدة)
عروسـة مـن غانيات الشعـر	(» »)
عـرائس الاشعـار	(» »)
يا طائـر الشعر	(» »)

وهذا يقودنا الى استنتاجين =

ـ فمن الناحية اللغوية عوض ان يكون المضاف معرفا بالمضاف اليه ـ الذي هو المرجع ومركز الثقل فى علاقة الاضافة ـ يصبح المضاف اليه هنا مطلوبا من المضاف لان العملية هى استلهام وهى فى جوهرها طلب شىء غير موجود .

ـ اما من الناحية الادبية فاننا لا نعثر فى التراث الشعـرى العربى عـلى ما يضارع هذا الا فى شياطين الشعر . ولئن كان الشيطان هو الذى يلهم الشاعر قصيده لانه ينظمه قلبه فاننا قلما نعثر فى دواوين الشعر العربى على مثل هذا الالحاح والتواتر فى استلهام الشعر من كائنات غيبية . فنحن اذن مـع هذه النصوص ازاء ضربين من الدلالات :

* فهى من جهة تحيلنا على تراث شعرى من نوع جديد لعله التراث اليونانى الذى بدأت حركة احيائه فى مـرحلة النهضـة الاوربيـة (7) واستفـاد منه الرومنطيقيون وفيه نجد آلهة الفن (Les Muses) (8) .

---

(7) اسم اسند مرحلة التجديد الادبى والفنى شهدتها أوربـا فى القـرنين 15 و 16 بتاثير من الثقافة القديمة .

(8) الآلهة التسع يشرفن ـ فى الميثولوجيـا اليونانية ـ عـلى الفنـون = التاريخ ـ الموسيقى ـ الكوميديا ـ التراجيديا ـ الرقص ـ الرثاء ـ الشعر الغنائى ـ علم الفلك ـ الخطابة .

* ومن جهة اخرى فالعملية نفسانية ايضا لانها تبين سمو هذا الشعر اذ هو وحي ياتى من عالم فوقى . وكذلك تدل على المعاناة التى يمر بها الشاعر قبل ان يتمكن من استلهام قصائده .

وتبقى بعد هذا قضية اخرى تجب اثارتها، وتتمثل فى القصائد التى وردت فى الديوان بضمير المتكلم وعددها 82 قصيدة ونسبتها الى مجموع قصائد الديوان 75،22 ٪ اى ما يربو على الثلاثة ارباع ، او تلك القصائد التى ذكرت فى عنوانها كلمة « شاعر » مثل « اغنية الشاعر » و « احلام شاعر » و « قلب الشاعر » . ان هذه القصائد تؤكد الصبغة الغنائية التى يتسم بها شعر الشابى ولسنا نريد البرهنة على ذلك فالامر لا يحتاج الى برهان . ولكن الاشكال الذى يطرحه هذا النوع من القصائد بالنسبة الى موضوعنا هو = هل ان ضمير المتكلم هو اشارة دائمة الى الشابى ام انه يمكن ان يعتبر احيانا مجرد تقنية شعرية ؟ ومن هنا نتساءل = الى اى مدى يمكن ان نعتبر ان هذه القصائد هى شعر على الشعر ؟ وهل اننا ملزمون ـ حتى فى حالات انعدام الاشارات الصريحة الى الشعر فى هذه النصوص ـ باخذ هذه القصائد بعين الاعتبار قبل الوصول الى نتائج نهائية ؟ وارتاينا لتجاوز هذه العقبة ان نجعل القصائد الواردة بضمير المتكلم مادة من مواد بحثنا لسببين =

* فليس لدينا ـ من جهة ـ اى دليل على ان ضمير المتكلم فيها لا يعود على الشابى .

* ولسنا نرى ـ من جهة اخرى ـ مدعاة للتعامل مع هذه النصوص تعاملا خاصا اذ انها ـ مثلها مثل غيرها ـ انتاج قريحة واحدة . لذلك راينا ان نطبق على هذا الصنف من القصائد المقولات التى نطبقها على مجمل قصائد الديوان فحيث وجدنا اشارة صريحة او ضمنية الى الشعر ادرجناها فى حيز عملنا .

هذه اذن هى الحدود التى رسمناها لحصر المادة التى ستكون موضوع بحثنا وهذه ايضا الحلول التى ارتأينا لتجاوز الصعوبات التى اعترضت سبيلنا . وسنحاول فى المرحلة الموالية من البحث ان نخضع هذه المادة للتحليل حتى يتسنى لنا استخراج بعض المصطلحات التى انطلق منها الشابى لكتابة قصائده والتى حاول ان يجعلها ايضا مصطلحات القراءة حتى تؤدى الرسالة التى يسعى الى ابلاغها .

(يتبع)

محمد القاضي

الشـّاعِر العَـربي

شعر: أبو فراس النطافي

يا شاعر « البحرين » روّ نفوسنا بندى « المنامه »

غرّد على غُصُن الأخوّة في «السّراة» وفي « تهامة »

وانثر على « أبْها » أزاهير المحبة والسلامه

حدّث عن الآباء في « البحرين » من أهل الكرامه

عن رحلة البحر الذي لم يرهبوا يوماً عُرامه

وعن اللآلىء مقمراتٍ في « الخليج » تزين هامه

وبلابل الأُفق الجميل على الشّواطىء مستهامه

إنا نحبّ ترابهُ ونحبّ أنفُسنا غمامهْ

ونهيم في شطآنه والصبّ لا يُخفي غرامه

هذي مواطننا وإن عزّ المزارُ فلا ملامه

فالله جمّعنا على وطنٍ وآثرنا انقسامه

عصفتْ به الأنواءُ في ليل التشاحنِ والزعامهْ

ودعاة يقظته على أفواههم وضعوا كُمامه

والماجدون الصيد من أبنائه فقدوا الدّعامه

داستهمُ الأنذال والعربيُّ ينظر كالنّعامه

ماذا يقول الشعر في آلام أمّتنا المُضامه ؟

في القابضين على الزناد رعوْا لموطنهم ذمامه

في القابعين على الهوان رؤوسهم وسط القمامه

حدّث على سمع الزمان فإنّهُ يطوي لثامه

والشاعر العربيُّ لا يخفي الحقيقة في ابتسامه .

مقامة السّفح .. والقمّة ..

قصة : الحبيب المرموش

اليوم يوم ح .. ز .. ن ، نهض من فراشه باكرا بعد أن أطرد عنه شبح النوم العنيد ، ودون أن يغسل وجهه ، ودون أن ينتبه الى نفسه فى المرآة والى شعره الذى يشبه فى علوه وانحداره أمواج البحر المتضاربة ، دخل تحت جبته الصيفية ودفع الباب قاذفا بجسمه الى الشارع . لم يكد يمضى نصفه حتى تسمر فى مكانه متأففا :

أوه .. لقد نسيت النقود !

ركض عائدا حتى أنه عندما حياه صديقه الحميم «فوزى المسكين» تحية الصباح لم ينتبه اليه فظل فوزى مشدوها لأمره ! وما هى الا لحظات حتى كان قبالة «الكشك» يقتنى صحيفته الحبيبة . ودون أن يغادر مكانه تصفحها الى أن ارسى بصره عند صفحتها الادبية . قلب العناوين والاسماء الموقعة تحتها مرات ومرات فلم يعثر لاسمه على أثر كما حلم فى الليلة الماضية .

ـ اذن كان الحلم زيفا ؟ كان زيفا اليس كذلك ؟!

انتبه اليه بعض الزبائن مرتابين فى أمره بينما طمأنهم صاحب «الكشك» الذى اعتاد تصرفاته ، حملق فى وجوههم جميعا بكثير من التحدى .

ألقى بالصحيفة لبائعها وغادر السوق مارا «بالربط» متخذا الشارع الخلفى الواسع «تحت السور» رفيقا له وهناك ما بين البحر وصمت المقبرة الخاشعة ركن بزاوية مقفرة قبالة «سيدى المازرى» وصورة صديقه التى تطارده التعاسة لا تفارقه لحظة !

كان بجيب جبته دائما قلم متمرد وورقة عذراء ناصعة البياض جعل يلطخ شرفها بالمداد :

ـ «اسمى فوزى بن عبد الله الـ••جـ••ذ••و••ن•• عمرى ثلاثون جنية وزنجيتين ، مطلق منفصل ولى فى كل شارع حبيبة تعسة تقف فى النافذة عارية فى انتظارى خلف قضبان النار وزجاج القطيعة ؟ تكالب القدر على وجودى فطعن المطلق غدرا لبعثى ! وذات فجر ارتعشت فيه أوصال الليلة الماضية ، غافل أبى أمى بعد هجر طويل ، فضاجعها عنوة وهى تستحم فى نوم لذيذ مقيدة تحت براثن نوبة عصبية ، مضت تسعة أشهر ناقصة تدحرج على اثرها رأسى ببيت يعرفه الجميع •

كنت أغفو وأصحو وملعقة الذهب لا تفارق فمى وكنت لا أعرف من صروف الحياة غير مقعد يحتضننى بجانب والدى في سيارته الطويلة العريضة الضخمة •

عندما بدأت أفقه سر الاشياء عرفت أن والدى صائغ تبر والماس وأنه من أعيان البلد يشتهى كل امرأة تدخل متجرة •

أمى الجميلة مريضة بحبه حتى الفناء •

أختى الملاك الذى سرق شعر بريجيدا ، وعينى أورنيلا وجمال ميراى ، ورشاقة دليدا ، هى عشيقة فتيان الحى تحيطها السواعد من كل جانب .

كلوديا حاولت أن تنتحر من أجل الفوز بأخى فى شريط «البترولاز» • وعرفت أخيرا أن قدرى اسمه ـ باتريسيا ـ .

وبمرور الايام أدركت أننى شاذ عن الحقيقة ومهووس حتى النبوغ ومتوحش حتى الهدوء • واكتشفت أخيرا أن العالم حشرة فى قبضتى وأنى متأكد من عبقريتى المتغذية من فكر «طاليس» تأكدى من قولك عنى : «معتوه فى هذه اللحظة» لكننى أصفعك بحدسى اذ لم أصادف فى حياتى أبله مثلك لا يفهمنى ويصر على قراءة بقية قصتى وتجميد ساعة من حياته لمجرد خروجى من قمقمى ودخولى فى مسامه لتحنيط جلده ••

كنت ليلة اجتيازى مرحلة «السيزيام» أمزق جميع كتبى وكراساتى وأحطم أدواتى المدرسية ثم ارتدى جبة جدى وعمامته وأحلى معصمى بسبحته بعد أن أطفىء النور .. وأشعل الشموع مسترسلا فى قراءة سور من كتاب الله

الكريم حتى «والعصر ان الانسان لفى خسر ، الا ...» وأظل أسبح باسم الرب وأرجوه أن لا يبخل بى ساعة الامتحان .

بكيت طويلا وأنا ساجد على حافة السرير أناجيه .

نظرت الى سقف البيت فلم أعثر له على ملمح .

ذهبت أطل من النافذة المطلة على السطوح . كان لون السماء أزرق وكانت المدرسة تقول لنا فى الفصل : ان الله يختفى خلف هذه الزرقة الممتدة الشاسعة النيرة العملاقة ... ما ان تذكرتها حتى احسست بقشعريرة تسرى فى دمى ورغبة تطن فى رأسى ، قفزت داخل الفراش ، نزعت الجبة والسبحة وثيابى قطعة قطعة وبقيت أنظر الى نفسى عاريا تحت الغطاء والى الكتاب ملقى على الوسادة . كانت اللحظة عسيرة الوصف ! وكان صوت الله يؤنبنى الا أنه رغم أنفى كان الفراش يهتز والعرق يتصبب منى وكان طيف مدرستى «نتيلة» يلازمنى ويهتز معى بلباسه الشفاف القصير .

كنت فى عالم آخر من الاحلام اللذيذة أسبح مع العينين الخضراوين والشعر الكستنائى .

سنة كاملة وأنا احتل الطاولة الاولى واسقط أدواتى المدرسية تحتها عشرين مرة فى اليوم حتى أننى ما عدت أجلس فوقها بقدر ما أقبع تحتها . وكانت دائما تتعمد عدم الانتباه الي أو الاكتراث بى ! الا اننى عندما حاولت ذات مرة أن ألمس يدها المستريحة فوق الطاولة وهى تشرح لنا درس التربية الوطنية نهرتنى بصفعة مازلت أتحسس بصماتها على خدى . وعوض أن أعود الى البيت يومها فى منتصف النهار عدت على الساعة الخامسة مساء فى سيارة والدى رفقة السيد المدير الذى نزل ضيفا عندنا ليلتها وقبل أن يفارقنا ليوصله أبى حتى باب شقته سمعته يعتذر مقسما بعقاب «أبلة نتيلة» وكدت أصرخ : لا ! الا أننى كتمت الصرخة فى قلبى . ومن يومها أصبحت صديقا لابن المدير أعبث بكل شىء وآخذ الحلوى والشكلاطة وكل شىء ... كل شىء .. لقد أصبح الكل يهابنى ...

تطلعت من النافذة بعد طلوع الفجر والليل يهرول مخلفا حذاءه فى الشارع الى قوافل التلاميذ تخف السير نحو المعهد الثانوى ، وكنت وحدى «تحت السور» اثر هروبى من الساحة أرمى السيارات المارة بالحجارة وألوذ بالفرار .

عندما بزغت عيون الشمس فى فؤاد السماء كنت على الشاطئ أوغل نظرى فى اللحم الناعم مكدسا على الرمال فى كل مكان. لم يتجاوز عمرى الثانية عشرة آنذاك وكنت كلما لاحظت فاتنة تتقدم نحو الامواج الصاخبة ركضت بجانبها لارشها بالماء وأغوص مفتعلا عدم الانتباه واللامبالاة · لكننى (ولحسن حظى) لم أنج من عقاب فقد حاول أحد أقربائها اغراقى بعد امطارى لكما وشتما · وكدت أغرق فعلا لولا تلك الفاتنة التى انقذتنى وأنتبه فى آخر لحظه ··· كنت فى شبه غيبوبة وكانت تجذبنى نحو الشاطئ ورأسى ملقى على واحة صدرها · وكان نهداها يهتزان مع الامواج التى تهزنى معهما · وخلت نفسى بين حلم وشبه يقظة لم أصدق اننى بين يدى أبلة نتيلة فتشبثت بالجسد الذى يحوينى لينتشلنى من هوة النهاية وتشبثت بالنجاة ··· بالحياة أكثر فأكثر ··· وابتسمت ثم غبت عن الوعى !!!

رفعت جفنى ببطء فاذا والداى يقفان أمامى من خلف غشاوة بدأت تتضح شيئا فشيئا وكانت هى تجلس على حافة السرير تبتسم ، وفتحت عينى أكثر فاذا بى وسط حجرة واسعة كالحة البياض بها مرضى وممرضين يرتدون نفس الزى بنفس اللون ولا شئ أمامى غير أبى وأمى يطمئنانى على صحتى ويسألانى عما حدث ، بحلقت جيدا ولم أجب بغير جملة واحدة : «أين أبلة نتيلة ؟!··»

تراكمت الايام وتناحرت الليالى وغادرت المدرسة واصبحت أرافق أبى الى مصاغته · وفى غمرة نشوتى بالحياة فارقت أمى الحياة بسكتة قلبية ولحقها والدى فى نفس السنة بعد اصابته بنزيف فكرى تداعت له شجرة المخ ، وتزوجت أختى أحد فتيان الحى الذى امتص رحيق شبابها ثم رماها لمخالب الافلاس وباع أخى أملاكنا وهاجر الى حيث توجد بريجيت ونينا ، وجانيت · وبقيت أنا معكم أقتفى أثركم وتقتفى اليد الحمراء أثرى ؟

تزوجت بحميدة المصابة بمرض القلب ، دخلت بيتى عذراء وغادرته بعد سنتين كما دخلته كنت كلما وضعت عليها يدى أشعر بالنار تحصد أناملى وقد حاولت كثيرا الى أن اكتشفت اننى عاجز !! ولم تكد تمضى الحلقة التاسعة من مسلسل «أديب» حتى انفصلت القمة عن السفح ·

حاولت كثيرا أن أجد لنفسى مكانا فى زحمة الحياة الى أن وجدتنى مكبلا بين أصابع اخطبوط آخر احتل بيتى بعد ايهامى بوقوعى فى الشراك مقابل

اخماد عواء بطني وحماية جسدي بالقليل مما تجود به فضلات سوق السبت الاسبوعية ، وأمام المحتوم رضيت بالعيش فى «القاراج» حيث أبيع الفلفل والطماطم والبطاطا لحسابه وعندما تزحف الظلمة ويقفل الباب علي من الخارج تجدنى أخط بالطباشير على الجدران بأحرف غليظة :

«نتيلة أين أنت ؟ أين ··· انى أحبك ·· أحبك ···»

ثم أتكوم على السرير الذى يظل يهتز بى حتى الصباح وأنا أتصبب عرقا ···

تلفح أشعة الشمس الصيفية السقف والجدران ثم تتسرب أشعتها من تحت الباب الخشبى فتحتل نصف المكان · أرمى بمجموعة «امرأة تعترف» تحت الوسادة ثم أضرب بقبضتي على الحائط الفاصل بيننا فتخرج زوجة صديقى «العنكبوت» التى طالما اقسمت بانه لن توجد القوة التى يمكنها أن تكرهها على الخروج من هذا البيت !

أدفع الباب وأسير فى اتجاه المقهى المجاور ، يرحب بى الجلاس الذين اعتادوا انتظارى كل صباح بعد نظرة شبه ساخرة الى ظهرى المقوس وفمى المزبد وعينى الغائرتين . يطلبون لى قهوة بطابع واحد من السكر ويتحلقون حولى راجين منى امتاعهم كل مرة بقصة جديدة ·

وعندما أصمت معلنا عن البداية يهلل جلاسى واصدقائى بالتصفيق فرحين مسرورين مكبرين فحولة قريحتى وفصاحتى وبلاغة قصصى ثم يدخلون فى ضجيج طويل حاد أحسمه أنا بقولى منتصرا : تى ··· زى ·· فو ···

هنا يأتى نادل المقهى باذن من مستخدمه ليرمى بى الى الشارع الطويل، فأمكث وحدى على الرصيف أبكي ويظلون بعدى يضحكون ··· ولا يقترب منى منهم غير «فوزى المجنون» ·

ويظل « فوزي العبقرى » يبحث عن نفسه معى وأبحث معه عن حبه ... عن لغز الحياة ··· عن الانتحار فى القمة ·· عن الجريمة فى السفح !·

الحبيب الرموش

شفة تعاكس حلمها

شعر: جمال الدين حشاد

— 1 —

كم شهقة تستوعب الفرح الذي
لمْ
يكتملْ ..!
كم عاشقا رحلتْ طقوسه بالجنون !
فلمْ يعدْ يستوعب (الوجه ..
الكلامَ المحتسي)
لغة الرّمادْ ...

— 2 —

أرأيتني قلبا تواجهه الحروفْ ؟
بالنوء – يفتح منزلا للسّهو
يكتشف البياض
أرأيتني ؟
أحتجّ ، أدخل صرخة الليلْ
حالما بقوافل القمح المتيّم بالعطشْ ..

الريح تدخلني وتمسح عن وجوه الأغنياتْ
قلقـا يـواجـه لحظة الإشـراقْ ..
مـا بـالهـا ارتحلت بنا ؟
في عمق سيّدة تواصل رعشة الألوان في أرضٍ
تغـادر لـونهـا
وتمـدّ روح البحـر
للـرّجل المسيّح بـالفـراقْ ...
فـاحتْ
ولمّـا استـأنسَـت بالنّخـلْ
بكَتْ في كفّ نرجسَـة لهـا
شفـة تعـاكس حلمهـا
لا ..
لا ..
تضـيءْ

جمال الدين حشـاد

العشرينات وأثرها في النهضة الفكرية والأدبية في المغرب العربي

بقلم : د. صالح خرفي

ـ 3 ـ (*)

الشعر في المغرب العربي بين الظلم والانصاف :

ويبدو لى أن الحركة الشعرية فى المغرب العربى ، لم تنصف بعد الانصاف الذى تستحقه ، تاريخا ونقدا ، كانت ولم تزل ضحيـة ظلميـن متعاقبين ، وكلاهما من ذوى القربى ، مع التقدير الصادق للدراسات التى لها علينا فضل الريـادة .

الظلم الاول يتمثل فى فترة القطيعة التى فرضها الاستعمار والتى فعلت فعلها فى المشرق العربى ، وأدت الى عكسه فى المغرب العربى ففى ذروة هذه القطيعة فى حساب المستعمر ، قالت (الشهاب) : اشتغالنا بالشرق أنسانا أنفسنا ، وقد وضحنا بالنصوص ، كيف كانت القطيعة فى حساب المستعمر ، وكيف هى فى واقع المواطن .

و (صلاح عبد الصبور) يعطينا الوجه الآخر للغياب فى المشرق العربى وبالاحرى فى الكنانة : (50)

« كان (لات) الشعر وعـزاه فى زمننـا الاول همـا : محمـود حسـن اسماعيل (51) وعلي محمود طه (52) ، اذ لم تكن الاصوات العربية تصـل

(*) تابع لما نشر فى « الفكر » : العدد : 2 و 3 ـ السنة : 30 ـ 1984 .

(50) على مشارف الخمسين ، صلاح عبد الصبور ، دار الشروق ، الطبعـة الاولى 1403 هـ 1983 م صفحة 14 .

(51) محمود حسن اسماعيل . انظر (على مشارف الخمسين)

(52) على محمود طه (1903 ـ 1949) .

الينا ، ولكن ثلاثة من شعراء العصر العرب استطاعوا **بالصدفة** أن يدخلوا الى عالمنا الصغير فى المدرسة الثانوية ، وكان لكل من هؤلاء الشعراء الثلاثة طريقة ، فقد غنى (عبد الوهاب) لاولهما وهو (إيليا أبو ماضى) (53) قصيدة (الطلاسم) وكان ثانى هؤلاء الشعراء ، وثالثهم هو أبو القاسم الشابى التونسى ، والتيجانى يوسف بشير السودانى (54) ، وقد ساقنا اليهما اديب من أدباء ذلك الزمان هو (محمد فهمى) (55) الذى جمع لهما ولثالثهما الهمشرى (56) المصرى كتابا من المختارات . وكان ما يربط بينهم جميعا هو انهم لقوا الموت فى شرخ الشباب » .

أما الظلم الثانى ، فيتمثل فى النظرة المعاصرة لفترة الاغتراب تلك فدراسبتها لا تتم الا بنظرة فوقية ، لا تقع الا قليلا على الارضية الاجتماعية فى فترة الاستعمار ، لا تكاد تلامسها حتى تعاود التحليق من جديد ، متشفعة بالمدارس الوافدة ، والاتجاهات السائدة ، ومحتكمة الى القوالب النقدية المنمطة التى قد تعطى تفسيرا مريحا للاجراس اللفظية ، وانتماء مبيتا للتفعيلات المستجدة ، ونسبا معنعنا للصور البيانية ، بينما تهدر المعاناة ألتى تميز التجزبة الشعرية فى تربة ، عن أختها فى تربة أخرى .

فهل المدارس الادبية ، والنقدية المعهودة منذ زمن ليس بالقريب قدر حتمى لدراسة كل تجربة ابداعية ؟! لماذا لا تفرض هذه التجربة ، وهى متفردة فى معاناتها ، أسلوب نقدها وتمحيصها ؟! لماذا نفترض الموازين النقدية سلفا ، وفى امكان التجربة أن تساعدنا ان غصنا فى أعماقها ، على استنتاج الموازين التى تنصفها ؟!

الشابى بين غربة الوطن وغربة المهجر :

وعن الظلمين السابقين ، نتجت ظلمات ضاعت فيها الحقيقة ، أو تكاد ، و (الشابى) وشعبه لم يزالا يدفعان ضريبة هذا التجنى ، والشعب هنا

---

(53) ايليا أبو ماضى انظر (على مشارف الخمسين) .

(54) التيجانى يوسف بشير (1912 ــ 1937) شاعر ، من الكتاب المترسلين ساهم فى تحرير جريدة ، ملتقى النهرين ، ومجلة (ام درمان) و (الفجر) وله ديوان مطبوع تحت عنوان (اشراقة) . الاعلام ج 2 ص 77 .

(55) محمد فهمى (شعراء الجيل) .

(56) محمد بن عثمان الهمشرى ، توفى سنة 1938 ، انظر الاعلام ج 7 ص 146.

واستسمحكم عذرا ، أوسع من أن يكون تونسيا فحسب ، فالعشرينات في هذه المنطقة لم تعرف لها عنوانا الا في (الشمـال الافـريقي) و (افريقيـا الشمالية) (57) و (المغرب العربي) تلاحما في النهضة الفكرية والادبية ، ووحدة في الكفاح الوطني .

ان النظرة الفوقية عجزت حتى عن انصاف الشعب العبقري الذي أنجب الشاعر العبقري . وعتمت جنبات الارضية التي انطلق منها الشاعر ، وفوقها حلق وعليها وقع مرة أخرى .

فشعب أبي القاسم في العشرينات ، شعب عجوز شعب جهول ، شعب مسحور عند بعض الكتاب ويضيف : (58)

« هذا شعب ذليل ، والذل يصحبه الجبن ، والشجاعة هي في مواجهة الذات فضلا عن مواجهة الحياة » .

ويضيف بعض كتابنا : (59)

المجتمع التونسي في الفترة القصيرة التي قضاها شاعرنا في محيطه كان مجتمعا مريضا في جسده وروحه ، باليـا في تفكيره ، وآرائـه مستسلمـا لاوضاعه الفاسدة » .

واذا لم تكن الصفحات التي مرت كافية لرفع هذه التهمة عن المجتمع ، فان أبا القاسم نفسه يقول عنه سنة 1930 : (60)

« ثم افترقنا ، ونفسي تفكر بالاوساط التونسية فاذا بي ، ما التفت الى ناحية من نواحي الحياة التونسية الا واجد فيها نشاطا وحركة ونهوضا ممـا

---

(57) مثل (جمعية التعارف الاسلامي لاهالي شمال افريقيا) (نجم شمال افريقيا) و (اتحاد طلبة شمال افريقيا) والقضايا السياسية ، والحركات الاصلاحية لم تكن تعالج في هذه الفترة الا على صعيد شمال افريقي. انظر (النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين في تونس) محمد صالح الجابري.

(58) أبو القاسم الشابي ، شاعر الموت والحياة (إيليا الحاوي) ج 2 ص 74 . دار الكتاب اللبناني بيروت ، الطبعة الثالثة 1981 .

(59) الشابي حياته وشعره ، أبو القاسم محمد كرو . ص 79

(60) مذكرات الشابي ، أبو القاسم الشابي ، صفحة 30 النشـرة الـرابعة . الدار التونسية للنشر 1983 .

يبشر بأننا الآن فى عصر انتقال وتطور ، تشمل حركته كل ضروب الحياة فى تونس ، حقق الله الامل ، فقد طال عهد الظلام » .

تلك صحوة من صحوات (الشابى) الوفي لشعبه ، المنصهر فيه حتى فى ذروة الغربة ، ولكن الدراسات التى تنغلق فى سورة (النبي المجهول) لتدمغ بها المجتمع فى العشرينات ، ولا تلتفت الى (ارادة الحياة) لتستنتج منها حيوية المجتمع ، وتدفقه ، وهديره ، انما هى دراسات لم تلامس أبا القاسم وشعبه بعد .

بل ان هذه القصيدة بالذات (ارادة الحياة) التى قادت ببيت واحد منها المجتمع الى الحرية والاستقلال ، هذه القصيدة الاعرق شعبية فى أرضية الشابى ، الاوغل معاناة فى مأساة الشعب هى عند الحاوى : (61)

« ليس لهذه القصيدة باعث معين للنظم ، وانما هى خواطر وتأملات طالعها الشاعر فى صفحة الحياة . وفيما خبره من مظاهر الطبيعة وحركات الموت والبعث فيها » .

أرأيتم التهويم ! ان الصراع مع المستعمر ، مع الظلم ، مع القيد على أرض الواقع الطعين ، هذا الصراع يفرغ من رائحته الترابية ، ويصبح فكرة فلسفية مجنحة تجسم الصراع بين إرادة الحياة وإرادة القدر .

لابأس « فالشابى ــ كما يقول الكاتب ــ (62) لا يستمد معارفه ومعتقداته من الكتب ، أو من الخبرة الذاتية فى مواقعة الاحداث والاشخاص بقدر ما يستمدها من كتاب الطبيعة المبذولة صفحاته لكل عين متأملة ، ونظر ثاقب ، وفكر مراقب » .

ويتعقب (الحاوى) تعابير فى (ارادة الحياة) كما يتعقب قدماؤنا السرقات الادبية ويقول : (63)

« وانك اذا وقعت على مثل هذه التعابير ، دون ان يعين لك صاحبها ، يخيل اليك انها تنتمى لجبران لانها مأثورة فى معظم كتبه وكتاباته » .

* * *

---

(61) أبو القاسم الشابى ، إيليا الحاوى ج 2 ص 88 .
(62) المرجع السابق ، ص 70 .
(63) المرجع السابق ص 113 .

و (النبي المجهول) هذا العنوان الذى اختاره الشابى لمحنته يتسلسل عند (الحاوي) الى ، النبي المرذول ، النبي المعتزل ، النبي الرومنسي حامل الثورة المهزومة : (64)

« وثورة الرومنسي تحمل هزيمتها في ذاتها لانها مستسلمة من نقطة انطلاقها ، فالشابى أنف من حياة القصور المتوترة ومن « كيد الضعيف لسمى القوى ، وعصف القوي بجهد الضعيف » فما كان من أمره ؟ لقد سار الى حيث تأوى أغاني الربيع ، وتذوى أماني الخريف وحيث الفضاء شاعر حالم يناجي السهول » واذا خلعنا عن هذه الآية حلتها الجمالية المتطبعة بطباع الادب الجبراني ، اقتصر أمرها كله على الهرب والاشاحة والتلهى بملهاة الطبيعة ، ذلك ان الرومنسي يحمل الثورة واليأس معا » .

سيقول القائل ، ان هذه المعاني من بنات الشابى ، صاغها شعرا ولم يزد الناقد ان بعثرها نثرا !

هي كذلك ، من بنات الشابى ، ولكن شتان بين المبدع والمحلل ، فابو القاسم أرادها ومضات مد وجزر مع شعبه ، شأن العباقرة ، وارادها غربة عبقرية ، يقاس حضورها بأبعادها المستقبلية وليس بالدقائق والثواني التى يعيشها الشاعر ، أو بالروابى والكهوف التى يأوى اليها النبي المجهول ، وليس المرذول ، فاردناها نحن منصة محاكمة ومنبر مرافعة ، وقفص اتهام لشعب صلب شاعره .

عبقرية الشابى نابعة من مجتمعه ، وومضة من ومضاته ، والشعب الغبي لا ينجب العبقرية ، والشعب الذليل لا يفجر ارادة الحياة . غربة الشابى لا تنم عن عقم المجتمع ، بقدر ما تعبر عن جموح العبقرية التى تخطت المجتمع بأشواط فأعياه اللحاق بها .

المجتمع التونسى ، بله ، المغرب العربى ، بعرفانه ونكرانه ، بايمانه والحاده بصخبه وسكونه ، بصراعه مع المستعمر وتدافعه مع الرجعية بتفتحه وانغلاقه، بطبيعته الساحرة ، وشمسه المشرقة بشواطئه الدافئة وهضابه السخية بسهوله الخضراء ، وفيافيه الجرداء ، بجباله الشامخة ، وكهوفه الغائرة .

(64) المرجع السابق 2 ص 18 .

المجتمع بكل سلبياته وايجابياته هو سر عبقرية الشابي ، وسعيد أبي بكر ، والسنوسي ، والجزيري ، وبيرم ، والعريبي ، وخريف ، ورمضان حمود ، والعيد ، وزكرياء ، والمهدوي ، والناصري ، والبلغيثي ، والحلوي ، وابن ثابت ، وبن جلون ، .. و .. و ..

وقصة الشابي والمهجر ، والمدارس الادبية الغربية ، ولن أطيل ، فقد أوجزت د. نعمات أحمد فؤاد وأغنت حين قالت :

« المهجر ... المهجر ... باب طرقه النقاد على الشابي كثيرا حتى ضج بالطرق والطارق ... لا تنزل يد الا لترتفع أخرى ، واختلطت الاصوات ، واختلفت التعليقات والتعليلات » (65) .

انا في غنى أن أكون من الطارقين ، ولن أذهب بعيدا ، فأبو القاسم بيننا ، وبجانبه أقرب الادباء فهما له ، وأقدرهم تلمسا لابعاده ، وارقهم اشفاقا على عبقريته ، مقدمه في مسامرة (النادي الادبي) وناشر افكاره في مجلته (العالم) ، زين العابدين السنوسي .

أبو القاسم في مشاهد حوارية (*)

الزمان : 20 جانفي 1930 .

المكان : مطبعة مجلة (العالم)

المناسبة : تصفيف مقالة أبي القاسم . «الشعر ، ماذا يجب أن يفهم منه ، وما هو مقياسه الصحيح ؟»

ــ زين العابدين :

اخالفك في بعض ما ورد بالمقال من الاراء ، وكنت أود مقابلتك قبل طبعه ، عسى ان تدخل عليه تعديلا ، ولكن وجود بعض ما يخالف آرائي لا يمنعني من نشره ، اذ ان مسؤولية ما فيه من الافكار محمولة عليك وحدك .

---

(65) شعب وشاعر ، أبو القاسم الشابي ، د. نعمات أحمد فؤاد ، صفحة 146 الدار العربية للكتاب ليبيا ــ تونس 1977 .

(*) هذه المشاهد من مذكرات الشابي ، ونص الحوار من تاليفه .

ـ أبو القاسم :

نعم · (وأردت أن أبين له أن ما يلاحظه على المقال ، ويود أن يكون موجودا فيه ، هو موجود فيه فعلا · فلم أتمكن لكثرة أعماله ووفرة حركاته) ·

ـ زين العابدين :

انك تريد أن تبعث المذهب الرمزي (سانبوليزم) من مرقده وهو مذهب قضى عليه الزمن ، ولم يتبعه فى فرنسا الا شاعران أو ثلاثة ·

ـ أبو القاسم :

لك أن تسمي طريقي بأي الاسماء التى تشاء ، فانا لا أعرف كيف أسمي ، ولا يهمني معرفة أسمائها · وسواء على ، أكانت تسميتها كما قلت ، أم خلافا له ، وانما الذى يهمني ، والذى أود أن تعرفه، هو أن ادعو الى الطريقة التى تسكن اليها نفسي ، ويرتضيها ضميري ، ما استطعت الى الدعوة سبيلا ·

واسمحوا لى فى مشهد حوارى آخر من مذكراته ، يلذ لى ، لانى اجد فيه ، وداعة ابى القاسم وصفاءه ، وغربته وضياعه ، فالعبقرية الشابية ضاقت على المؤمن والملحد فى عصره ، ولانى اجد فى هذا الحوار الكثير من الهمز واللمز الذى تعيشه الهواجس التى عالجت الشابى ، ولانى اجد فى نهاية المشهد من لوعة الغربة ، وروعة الموقف ما يحملنا امانة فهم الشابى على حقيقته ·

المكان : مكان ما فى العاصمة التونسية ·

الزمان : 7 جانفى 1930 ·

المناسبة : لقاء مع أديبين معروفين ملحدين ، احدهما متجاهر والثانى متستر·

الاول : (ان ادبك يا صديقى فن غريب ، لا أظنه يعيش فى تونس ، فانت فى شعرك من الشعراء الذين يدينون بالمذهب الرمزى ، وانى لعلى يقين من أن ادبك لا يفهمه فى تونس الا افراد قلائل لا يتجاوزون الاربعة أو الخمسة على الاكثر ·

الثانى : أراك غلوت كثيرا فى حكمك ، وجاوزت حد الانصاف ! وما أدراك ان أدب صديقنا لا يفهمه الا مثل هذا العدد اليسير ؟! ولابدأ بنفسى

فاننى أفهم شعر صديقنا حق الفهم ، وأدرك مراميه البعيدة ، وأشعر حين أقرأه بخيالات تجول فى نفسى ، وبعواطف تتحرك فى قلبى وبآفاق تتفتح أمامى وتمتد .

الاول : (وأبو القاسم ، صامت ، مطرق ، يتابع الحوار) اننى لا أزال مصرا على رأيى ، وأجزم به ، فان أمير الشعراء لا يفهم من شعر أبى القاسم شيئا ، ان هذا الفن من الادب الذى يتخذ من الطبيعة رموزا لمعانى النفوس ، جميل ، جد جميل . ولكنه سام جدا ، وغامض فى سموه بحيث أنه لا تفهمه الا نفوس قليلة قادرة .

ابو القاسم :

(فى يأس وقنوط ، وبينه وبين نفسه ، متمثلا بيوليوس قيصر حين لعبت به السيوف) :

حتى أنت يا انطونيوس .

(كنت أحسب أنه خير من فهمنى ، وأدرك أشواق قلبى وأفراحه ، واصغى الى اغانى روحى ، فاذا به شر من جهل لغة نفسى) .

أبو القاسم :

(صامت لا يتكلم الا بينه وبين نفسه) :
لست والله غير طائر غريب ، يترنم بين قوم لا يفهمون اغانى الطيور ، ولكن هل يحفل الطائر بالوجود خين يترنم ؟ هل يسأل الناس : أيكم يفهم اغانى الطيور ؟ كلا ! يا قلبى كلا ! ... سر فى سبيلك يا قلبى ، ولا تحفل بصفير الابالسة ، فان وراءك أرواحا تتبع خطاك .

مع أبى القاسم من جديد :

كان الشابى غريبا حقا ، غربة العباقرة النسور ، تحضنها الاعشاش ، فاذا مدت الاجنحة ، حلقت بعيدا ، مجنحة ، متمنعة عن الابصار ، مستعصمة بالقمم . فلا يعيب ابا القاسم أن يأوى الى الغاب ، وقد بلغ الرسالة ، فهو بها حاضر فى الاعماق ، نابض فى النفوس ، متناسخ فى الارواح متوالد مع الاجيال ، فما أبرأه من الثورة المهزومة !

ولا يضير الشابي وهو على قيد الحياة ، وعلى عتبة الوداع ، ألا يجد من يفهمه ، ويقرؤه الا القلائل ، وان يغلق (النادى الادبي) بابه بعد ثلاث محاضرات ، أولها (الخيال الشعرى عند العرب) التى عدها أدعياء الادب (ثورة على الآداب العربية ، وجحودا لمزايا العرب ، وزندقة وكفرا) .

لا ينقص من عظمة (قيصر) أن يكون صريع أخلص خلصائه ، (انطونيوس)

كل ذلك ، وغيره ، لا يمس الشابي فى اصالته العربية الاسلامية ، ولا يقدح فى عبقريته وليدة تلك الاصالة ، ولا فى مجتمعه وارث هذه الاصالة ، ولا فى عصره ، ملتقى المواقف التاريخية ، وعتبة الانتقال والتطور ، وموسم الهجرة من (النبى المجهول) الى (ارادة الحياة) ، عصر (رياح التغيير) كما يقول الجابرى (66) .

غربة أبى القاسم فى السنوات الخمس التى سبقت رحيله ، لم ولن تقطع ما بينه وبين شعبه من سلك رقيق مكهرب ، يشد الشاعر فى أعماق الغاب ، وفى ظلمات اليأس ، وفى سورة العبقرية ، وينجبه مرة بعد أخرى فى أجياله المتعاقبة .

انها (خمسينية) الوفاة ، فلنجعلها بداية الانبعاث ، الرحلة من جديد مع أبى القاسم ، من هنا ، من (توزر) من الجنوب ، بسمائه الصافية ، بشمسه المشرقة المحرقة ، بكثبانه المتموجة ، باغنامه ، برعاته ، بنخلته الباسقة ، وغديره الرقراق .

ولنواصل الرحلة فى اتجاه الشمال ، ولا بأس من التقاط الانفاس مرة فى رحاب (الزيتونة) وأخرى فى دوائر العدلية ، ولنطل الوقفة ، ونخفف الوطء فى مدخل (قاعة الخلدونية) فهنا قال أبو القاسم قولته ، ومضى فى سبيله .

وهناك مربع محبب الى نفس أبى القاسم الكسيرة، وقلبه المتعب، (البلفدار) فلا بأس من استرخاء فى أعشابه ، وسرب من عذارى الافرنج يلعبن لعبة (التنس) وابو القاسم موزع النظرة بينهن وبين كتاب (رفائيل) فى يديه .

---

(66) الشعر التونسى المعاصر (1870 / 1970) محمد صالح الجابرى صفحة 209 الشركة التونسية للتوزيع 1974 .

وما دمنا مع (لامارتين) وشبابه الزاخر بالعواطف والاحلام ، فلا ضير من التحليق بعيدا والوقوع على (البحيرة) الرومنسية ، ثم التحليق مرة أخرى فى (طلاسم) أبى ماضى ، و (عواصف) جبران و (انداء) أبى شادى .

ولكن جدير بنا ألا نطيل الهجرة ، فابو القاسم سبقنا الى مرتفعات (عين دراهم) بسنديانه الباسق ، وظلاله الوارفة ، وهوائه النقى ، انه مجهد القلب، لاهث الروح كأنه يلاحقها على قمم الجبال ، وهى تسابقه الى الرفيق الاعلى .

وأبو القاسم مهما شدته الاجنحة بعيدا ، لا يقوى على الوقوع الا على عشه الاول .

وأبو القاسم يعجب لنا ، والنظرة تشدنا الى الوراء ، كأننا آسفون لما غادرناه هناك ، بعيدا ، من جمال الطبيعة ، وروعة الخالق والمخلوق ، عجبا ! ان الله جمع لـ (الخضراء) ما فرقه على غيرها . ووهب هذه الربوع ، ما حرمته أخرى ، ما لكم كيف تحكمون ؟! انها عشيقة البداية ، وعشيقة النهاية، فما دخلكم فى الصد والهجران .

أبو القاسم سبقكم الى (توزر) وأخشى ان تكون انفاسه سبقتكم الى بارئها، وانتم تختصمون . هنا بدأ أبو القاسم ، وهنا لم ينته .

رحمك الله ، أبا القاسم فى الخالدين .

نم ملء جفونك ، وعلينا السهر والاختصام ، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

د. صالح خرفى

الحمامات محرم 1905 هـ سبتمبر 1984 م

ما الحب ؟

شعر : مصطفى النجار

لونتِ بالشفق الفؤادْ ... ومزجتِ بالفرحِ الحِدادْ
ورميتِ أغلى ما أحبّ ... وما أعاني .. في الرماد ؟
حيناً أراكِ عنيفة .. ... وأراك حينا في ابتراد
ما الحب عندكِ ؟ خبّريني .. ... أطمئنّ إلى وساد
الحبُّ في قدَري اصطفاءٌ ... للعواطف .. وانقيادْ
الحب أفهمه انطلاقًا ... من تفاهات العبادْ
مَنْ أنت ..؟ يا من تسكنين ... بكلّ ذراتِ الفؤادْ ؟

من القصائد التي ستنشر مستقبلا

حديث النفس	حمادى الباجى
سيدتى والألوان	عبد الله السيد شرف
الزمان حين لا يجىء	احمد سويلم
بلدي والشعر	ابراهيم عيسى
استمرارية	مشهور فواز
ثلاثية الميلاد والتوهج والانطفاء ..	البشير المشرقى
الدينار	عبد الله الزناد
أقزام	نور الدين صمود
الحجاب	هشام المحمدى
صفحتان من كراسة الحلاج ..	محمد علي محمد
حين تتوجع الاشجار	الصادق شرف

حلم مزعج جدا

قصة : الحبيب بن فضيله

نزل الخبر عليه نزول الصاعقة . تسمر فى مكانه . احس انه مشدود الى الارض شدا . فهو لم يكن يتصور ان فلذة كبده ينتهى بهذه السرعة وأحس بالدموع تتحجر فى مدامعه وغصرته العبرة فشهق ...

كان أحمد يحاول أن يخفف عنه وقع النبأ . يذكره ببعض آيات الذكر الحكيم وببعض العبر والحكم والامثال . هكذا اعتاد الناس فى القرية ، كلما حل مكروه بأحد اجتمعوا حوله وسلكوا معه هذا المسلك ، فالناس فى القرية يمتازون بالطيبة والمؤازرة ، ويعتبرون أنفسهم عائلة واحدة رغم تشعب الحياة ...

وأحس أحمد بلسانه ينعقد وبالالفاظ لا تتعدى الحنجرة . شعر بالارتباك وبطعم الملح بين شفتيه . لقد كان عبد الرزاق صديقا حميما له . درسا معا فى مدرسة القرية ، وانقطعا فى نفس السنة عن التعلم ... وعبد الرزاق كان قوى البنية ، ضخم الجثة ، أحمر الشعر والوجه ، يخشاه كل التلاميذ فكان يحمى أحمد من بطش الصبية فى ساحة المدرسة لذا تحسر أحمد على ضياع عبد الرزاق وشعر بالالم ...

ترى كيف ستتقبل الخالة خديجة هذا الخبر ؟ ... انها فاجعة كبرى .. لابد وأنها ستطلى وجهها بالسواد تماما كما يفعل نساء القرية فى مثل هذه الحالة .. وتمـزق ثيابهـا .. وتولول وتصيح .. وتندب خديها فيسيل الدم من وجهها المتجعد المستطيل كوجه النعجة ، فعبد الرزاق هو ابنها الوحيد ، وقد انجبته بحوالى عشر سنوات بعد اخته سالمه التى تزوجت من ابن عمها

فى العام قبل الماضى ، وقد اشفقت أن لا تنجب طفلا يحمل لقب الاسرة ٠٠ فالانثى لعنة ولا تدخل فى عملية العد ٠٠٠

لما غصرته العبرة شهق العم خليفة وتاه ٠٠٠ فهو ما زال يذكر زيارة ابنه الاخيرة الى البلدة ٠٠ لقد عاد عبد الرزاق فى العام الماضى من المانيا بسيارته الحمراء ، فاشرأبت له اعناق نساء القرية ، وأصبحن يطلبن ود أمه ٠ واحتد الصراع وانحصر ذات يوم بين حليمه وآمنة فكل واحدة كانت تريده زوجا لابنتها ٠ وكاد الخلاف بينهما ينتهى بسجن حليمه التى مسكت بشعر رأس آمنة ومرغتها فى التراب ٠٠ لولا تدخل بعض العقلاء ٠٠٠ ولما اشترى عبد الرزاق «تلفاز» و «غاز بالكوشة» ٠٠ بعد ان ادخل تغييرات على المنزل حيث أضاف غرفتين وأصلح الباقى ، وملأ المنزل أثاثا فاخرا – انقلبت القرية ، لقد جاء الناس كلهم يقدمون التهانى ٠٠ تهانى العودة السالمة ، واشتراء الاثاث ٠ وكانت فرصة اخرى تتاح لعرض الصبايا على عبد الرزاق ٠٠٠

لابد وأن يأتى الناس هذه المرة أيضا ، ولكن فى مهمة جديدة ٠٠ ولا بد أن نستقبلهم استقبالا مغايرا للسابق ٠٠٠

ما زال العم خليفة يذكر – والناس معه – ان عبد الرزاق وعد أمه بالعودة بعد سنة ونصف السنة – لما كانوا متحلقين حول التلفاز – ليختار لنفسه عروسا وينجب أطفالا يملؤون البيت بهجة ٠ يومها سال لعاب حليمه خاصة لما طلب عبد الرزاق من امه أن تقنعنى كى أقلع عن بيع الفحم وترك العربة ومد لها نصف مليون (ورقة تحك ورقة) لننفقه على أنفسنا ٠

آه ٠٠٠ عظم الشقاء ما يعرف راحه ٠٠!

ولكن هل ترانى اسعى اليها هذه العربة ام هى التى تسعى إلي ؟!

فحام ٠٠٠ فحـ ٠٠٠ ـام ٠

واحس بيد باردة تتسرب اليه من تحت الغطاء لتمسه فى مكان ما ٠٠٠ سى خليفة ٠٠ قوم ٠٠ صلاة الفجر ٠٠ كان مش تصلى ٠٠ !

ضم العم خليفة زوجته اليه ٠٠٠٠٠٠ ثم قص عليها حلمه المزعج ٠٠ ولم يؤد صلاة الفجر فى ذلك اليوم ٠٠٠

الحبيب بن فضيله

الحبّ ومنزلته في ديوان «أغاني الحياة» لأبي القاسم الشابي

بقلم : عبد الحميد الشابي

ـ 2 ـ (*)

(3) قصة الحب عند الشابي واطوارها :

تضمن ديوان « أغاني الحياة » حوالى 33 قصيدة من موضـوع « الحـب. » ضبطناها متصلة بتواريخها ثم انطلقنا منها للقيام بتتبع خطى الشابي في عالم حبه وفي رحلته عبر مختلف مراحله (انظرها مرفقة 1) . على ان حوالى تسعة عشرة قصيدة اخرى قد تضمنت اشـارات الى الحـب وتصرفـاته (انظرها مرفقة 2) .

وعلى كل فان قصة الحب لقصة طويلة سوف تواكب حياة الشابي وسوف تكون الصق ما يكون بروحه وجوارحه وحياته :

للحـب نحـن خلقنـا لكـي نـحـب ونـهـوى

الحب في « اغاني الحياة » لأبي القاسم الشابي

الرقم	التاريخ	عنوان القصيدة
1	23 / 2 / 23	الغزال الفاتن
2	23 / 5 / 23	فمني يوصل
3	15 / 6 / 23	حبذا اليدر
4	27 / 7 / 23	............؟
5	15 / 7 / 24	فتاة الحي

(*) تابع لما نشر في « الفكر » : ع : 3 ـ س : 30 ـ ديسمبر 1984 .

6	24 / 7 / 30	بين خمر الهوى وخمر الدنان
7	24 / 8 / 1	أيها الحب
8	24 / 8 / 4	أوجه طرفي
9	24 / 8 / 11	وعود الغواني
10	24 / 8 / 21	فى القرارة
11	24 / 8 / 26	كهرباء الغرام
12	24 / 8 / 31	إياك
13	24 / 8 / 31	الفتنة الساحرة
14	25 / 8 / 30	صيحة الحب
15	25 / 9 / 30	ليلة عند الحبيب
16	26 / 1 / 19	أنشودة الحب
17	26 / 8 / 7	مأتم الحب
18	27 / 8 / 28	الحب
19	27 / 8 / 30	جدول الحب
20	27 / 11 / 24	الذكرى
21	30 / 7 / 19	إلى عذارى افرديت (1)
22	32 / 7 / 19	» » (2)
23	31 / 9 / 4	رثاء فجري
24	31 / 9 / 4	أنا أبكيك للحب
25	31 / 10 / 13	صلوات فى هيكل الحب
26	31 / 10 / 21	الحلم المعسول
27	31 / 10 / 24	أراك
28	31 / 11 / 26	الحب السماوي
29	31 / 7 / 19	الساحرة
30	33 / 2 / 11	أيتها الحالمة بين العواصف
31	33 / 3 / 13	ذكرى صباح
32	33 / 9 / 15	الحاني السكرى
33	33 / 9 / 21	تحت الغصون

ذكر الحب في « اغاني الحياة » لأبي القاسم الشابي

الرقم	التاريخ	عنوان القصيدة	الصفحة
1	2 / 6 / 1925	تونس الجميلة	24
2	27 / 6 / 25	في الظلام	30
3	15 / 11 / 26	الزنبقة الذاوية	51
4	18 / 1 / 27	يا شعر	54
5	20 / 6 / 27	الدموع	72
6	20 / 1 / 28	المساء الحزين	92
7	8 / 3 / 1928	أغنية الشاعر	99
8	1 / 4 / 28	في فجاج الآلام	101
9	28 / 10 / 28	قلت للشعر	124
10	20 / 4 / 29	إلى قلبي التائه	131
11	1 / 1 / 29	يا موت	137
12	29 / 9 / 29	إلى الله	141
13	7 / 6 / 30	صفحة من كتاب الدموع	154
14	30 / 9 / 31	إبناء الشيطان	176
15	7 / 11 / 31	فكرة الفنان	186
16	3 / 4 / 32	حديث المقبرة	196
17	5 / 4 / 32	في ظل وادي الموت	203
18	9 / 1 / 33	الجنة الضائعة	209
19	17 / 2 / 34	الاعتراف	257

وهذه القصة لا تقل عن الشعر لصوقا بحياته ، اذ الحياة عنده بالحب محتوى ، وبالشعر متنفسا وتعبيرا أو لا تكون :

قد كان له قلب كالطفل يد الاحلام تهدهده
من كان له ملك في الكون جميل الطلعة يعبده
لولاه لما عذبت في الكون مصادره وموارده
ولما فاضت بالشعر الحي مشاعره وقصائده

وستبتدى هذه القصة مع قصيد « الغزال الفاتن » حيث عاش الشابى أول حبه مع تلك « الريحانة » التى عرفها فى بلدة مجاز الباب ذات المزارع والحقول الشاسعة (حيث ولى والده القضاء) .

ولن يمحو الزمان ذكرى تلك الحبيبة . فقد كتب فى مذكراته (الاربعاء I جانفى 1930) :

« أنا جالس وحدي فى سكون الليل ، استعرض رسوم الحياة وافتكر بأيامى الجميلة الضائعة ، واستشير أرواح الموتى من رموس الدهور .

ثم ها هى تلك الريحانة الجميلة التى انبتتها فى سبيلي أنامل الحياة . ها هى تنظر إلي بعينيها الجميلتين الحالمتين باحلام الملائكة ، ثم تشير إلي براحتها الجميلة الساحرة وبأناملها الدقيقة الوردية ، ثم ها هى تطبع على ثغري قبلة حلوة ساحرة بشفتيها المعسولتين برحيق الحياة » .

وها هو الشاب المراهق ينطلق من هذه التجربة ، فلا يقتصر على التملي بما للملاكه من الجمال وآياته ، بل يتجاوز ذلك الى نوع من الاستجلاء لا يجني منه الا الحيرة واصداء تساؤلاته :

ليت شعري يا أيها الحب قل لي من ظلام خلقت أو من ضياء ؟

ولا يزال هكذا متوغلا فى متاهات الحب ، حتى ينتهى الى الشعور بعظم منزلة وثنائية فعله :

ان للحب على الناس يدا تقصف الاعمار
وله فجر على طول المدى ساطع الانوار

ولكن هذه المتعة الروحية المستمرة ، متعة البحث والتمادى فى استكشاف ماهية الحب بدون الاقتصار على عيشه ، لا تلبث ان تزول بموت الحبيبة (فعلا) ، وتكون هذه المصيبة أول صدمة وادهى بلية فى حياته ، يتكدر لها صفوها ، وتضيق الدنيا بما رحبت . فيندب وحق له الحزن فى حياة عادت قفراء :

مات حبي !
فاذرفي يا مقلة الليل الدراري عبرات
حول حبي فهو قد ودع آفاق الحياة

وتشتد الوحدة القاتلة ، وتشتد معها الحاجة الى المشاركة ، فلا يلقى أحسن من الأم ينشد بجوارها الأنس يستعين به على مقاومة وحشة وجودية سحيقة ، ولكنه عبثا يحاول :

ولما ندبت ولم ينفع ... وناديت أمي فلم تسمع
رجعت بحزنى الى وحدتي ... ورددت نوحي على مسمعي
وعانقت في وحدتي لوعتي ... وقلت لنفسي : «الا فاسكتي!»

ويطغى عليه الحزن ، وينغمس فى اعماقه الى حد البحث عن الاتحاد بمثله من الحزانى ، ويتصور او وكأنه قد حل ، أو ليس الحزن مدخلا الى الموت ؟ :

وان جرفتنى أكف المنون ... الى اللحد أو سحقتك الخطوب
فحزني وحزنك لا يبرحان ... اليفين رغم الزمان العصيب

ولكن سرعان ما ينبع فيض الحياة فى قلبه ، فيشعر بالحاجة الى من يشاطره لمقاومة الاحزان ، وتفريج الكروب ، فلم يجد انجع شريك وأصدق مواس ، وأنبل رفيق من الشعر ...

وما هى الا فترة حتى تعاوده الذكريات ، فتنجم من كل حدب كالاشباح ، منطلقة من عالم الموتى ـ عالم الحبيبة : الميتة فى عرف الناس ، الخالدة فى عالمه الروحى ـ فتثير اللوعة من مكمنها ، ويطغى اليأس :

ضاع امسي، وأين مني أمسي؟ ... وقضى الدهر ان اعيش بياس
وقضى الحب فى سكون مريع ... ساعة الموت بين سخط وبؤس

ولكنه الحب : فما كان ليتقيد بالظروف ، فهو يتجاوز الانسان وهو خالد خلود الروح ـ وها هو الشاعر يتحدث عنه حديث الفيلسوف الذى يبدى فيه رأيه عن روية وسابق تجربة ، ويعتبره نعمة إلهية وأساسا لخلق المجتمعات ودوامها : لانه سر الحياة ومبعثها :

لولاه ما سمعت فى الكون اغنية ... ولا تتآلف فى الدنيا بنو افق

ولكن الوفاء لا يهادن صاحبه ولا تمحي فى نفسه آثاره ، فعروقه أعمق من أن تأتى عليها الظروف العابرة : وكيف ينسى تلك التى فجرت فى قلبه ينابيع الحب والتى ودع بفقدها كل المسرات :

ثـم اختفـت أواه طـائـرة باجنحـة المنـون
نحو السماء وها أنا فى الارض تمثال الشجون

وتتحرك سورة الشباب فى نفسه ، فتدعوه الى الخروج من سلطان الحزن ، وها هو يقوى ويقاوم صامدا متحديا :

فالـذى يـرهب الحيـاة شقـي   سخرت من مصيـره الاحـداث

ولكن الذكرى تعاوده ملهبة قلبا كم كان اليأس أوهاه ، فيتوق الى الانعتاق من دنيا فقدت كل معنى وقيمة الى عالم خالد حقا :

مات الحبيب وكل ما قد كنت ترجو ان تكون !

ويعود مرة أخرى الى الشعر رفيقه الوفي فى السراء والضراء يلتمس فى رحابه التنفيس عن نفسه الثكلى :

يا ربة الشعر غنيني فقد ضجرت   نفسى من الناس أبناء الشياطين
لـولاك فى هذه الدنيـا لما لمست   أوتـار روحى أصـوات الافـانين

الا ان الشابى ، سواء حرقته لوعة الباكى على من لا تعـود حتى تـاق الى عالمها وزهد فى هذه الدنيا ، أو حاول جاهدا الاستعـانة بالشعـر كمنفـذ ضرورى للتعبير والتفريج ، ما كان ليركن الى انطوائية على النفس وانغلاقية برعاجية ، بل لا يلبث ان يشعر بالحاجة الماسة الى أخيه الانسان يشكو له ما يعانيه فى سبيل الحقيقة ، ويبث فى قلبه معانى الانسانية الحق :

يـا رفيقـى اما تفكـرت فى النـاس وما يحملون من آلام ؟
فلقـد حـز فى فؤادى ما يلقون من صولة الأسـى الظـلام
فاذا سرنى من الفجر نـور   ساءنى ما يسر قلب الظلام
كم بقلب الظلام من انة تهفو   بغصـات صبيـة ايتـام
ونشيـج مضـرم من فتـاة   ابهظتهـا قـوارع الايـام
ونـواح يفيض من قلـب ام   فجعت فى وحيدها البسـام
وانين من معدم ذى سقـام   عضه الدهر بالخطوب الجسام

ولكنه يشعر بقلة الجدوى ، فلا ذلك الرفيق مواس ، ولا الحقيقة مدركة ، بل التيه ، التيه المتواصل والتوق الى عالم بعيد المنال .

ويجتاز الشاعر ازمات تنوء تحتها الجبال الرواسي :

ـ منها فقدان والده الرحيم .

ـ ومنها خيبة مريرة تدمي قلبه ، يلقاها من شعب لئيم ، يرفض عطاءه السخي ويجازيه سوء جزاء :

في صباح الحياة ضمخت اكوابي واترعتها بخمرة نفسي
ثم قدمتها اليك ، فاهرقت رحيقي ودست يا شعب كاسي

ولكنها ازمات ، ما كانت ، على بالغ اثرها ، لتنسيه الحب العظيم الخالد ، لا يزال يتضوع اريجا كلما حركه نسيم الذكريات :

ـ فهذه مقارنة مؤلمة بين ماض ذهبي ، وحاضر حالك :

غنـاه الامس واطربه وشجاه اليوم فما غده ؟
قد كان له قلب كالطفل يد الاحلام تهدهده
من كان له ملك في الكون جميل الطلعة يعبده
واليوم لقد غشاه الليل فما في العالم يسعده

ـ وها هو تجواله الشعوري ينتهي به الى عالم من الحب الارضي فيحتار في عذارى « افروديت » .

ولكنه لا يلبث أن تنقشع حيرته ويجد الحل الفصل في هذا الموضوع الخطير :

غير باق في الكون الا جمال الروح غضا على الزمان الابيد

ولا يزال في متاهات ترحاله يتوق الى حياة شعرية صرف لا يمكن تحقيقها ، تشده مشاكل الحياة المادية والفكرية شدا ، فيخاطب قلبه تارة ويستحضر الماضي طورا لا يرى فيه الا الحب . ويعود اطوارا الى الناس ولكنه لا يلفيهم الا عبيدا للشرور :

اي ناس هذا الورى ؟ ما أرى الا برايا شقية مجنونه
جبلتها الحياة في ثورة اليأس من الشر كي تجن جنونه

واذا به يغيب عن كل ذلك ولا يستيقظ الا وهو في « هيكل الحب » يصلي لتلك التي يضفي عليها من آي الجمال ابدعها ، ومن حلل الفتنة ابهاها شأنه شأن « بغماليون » مع « قالتيا » الجميلة .

فلا يزال مشدوها فى ذلك العالم الجمالى المطلق تحيطه الاستفهامات من كل حدب وتفيض صلواته سخية :

أى شـيء تـراك .... ! ؟

انت فوق الخيال والشعر والفن وفوق النهى وفوق الحدود

ويغنم فى هيكله ، ومن صلواته تلك إلهاما ذا ابعاد هائلة يغـذي ينابيع شعره ، ويبعث فى نفسه ما لا يحد من الرؤى الشعرية ، والمشاعر السامية .

وتستمر هذه النشوة الشعرية المنطلقة من المنظور لتسمو الى عالم الالهام المبدع ، عالم الخلود حقا :

اراك فاخلق خلقـا جديـدا كأنى لم أبل حرب ألوجـود

وتتواصل نشوة الحب هذه ، ووجدانية صوفية رفيعة لا تحدها الحدود ولا تأتى عليها العراقيل ، لانها منبثقة من القلب « الشبـاب الخـالد » ، منبـع « العطف الجميل » :

شيدت على العطف الجميل وانهـا لتجـف لو شيـدت على التفكيـر

وهكذا لا تنقطع هذه العلاقة وتتواصل متينة بين الشاعر والحب حتى آخر حيـاته : وتتجسم صورها وتحيا ..

ـ اما فى ماض قصرت صروف الزمان عن محوه .

ـ واما فى حاضر ملهم خلاق .

ـ واما فى ظروف مستقبلية يتطلع اليها مندفعا ، فيتفتح لها قلبه ويزدهر وجدانه ، فيثرى من معينها ولا يتسنى ان يعيشها الا من كان شاعرا مثله أقر ان الحياة حب يعاش وشعر يعبر أو لا تكون .

(يتبـع)

عبد الحميـد الشـابى

ذات العيون النجل..

شعر: علال الخياري

حسناءُ ، ذاتَ العيون النّجل إن هتفتْ   رُوحي بحبكِ ، جنّ الشعرُ والزّجَلُ
في ثلج أطلسنا في رَملِ شاطئِنَا   رَسمتُ حرْفكِ مفتونا بهِ الغَـزَلُ
أنغامُهُ ساحِرَاتُ الجرْسِ ذوّبَهَا   في بسمَةِ الفجرِ شاذٍ .. حالمٌ .. ثمِلُ
رَسَمْتُهُ ملحَماتٍ .. شدّ فارسُها   يداً على الزّندِ يذْكِي عزْمهُ أملُ
أجرَى إلى الشّاطىء المجهول زَوْرَقهُ   لمْ يانِ في الموْج في الإعصَارِ يرتحل
رَسمته غيمةً بيضَاءَ سَابِحَـةً   بالعطْرِ تمطرُ .. بالأشذاءِ تنهملُ
فأينعتْ سنبُلاتِ المرْج .. وانتعشتْ   خضْرُ الرّوابي ورَاقَ السهلُ والجبلُ
رَشفتُهُ أكؤُساً وَرْدِيّةً سكِرتْ   منهَا اللّيالي .. أضاءَتْ دَجنها شعَل
رَسمتُهُ شَمعَةً أشعَلتُها بيَدِي   رَسَمتُهُ وَرْدَةً في ثغرهَا قُبَـلُ

★ ★ ★

في جِيدكِ المرْمريّ .. العقدُ من دُرَرٍ   وأنتِ نشوَى كساكِ الوَشيُ والحللُ
لكِنّ حرْفكِ ياحسنَاءُ إن تثقِي   ماعَاد شيئاً ، فقدْ أوْدى بهِ الخجلُ
قصّتْ جناحيهِ أحداثٌ وزَحزَحَهُ   عنْ عشّهِ ماردٌ حيرَانُ مُرْتَجِلُ
لا تعذِبِيهِ ، فإنّ الثّأرَ مُلتَهِبٌ   في مُقلتيهِ ، ولكن لمْ يحنْ أجَلُهْ
غداً يرفّ نسِيماً في خمَائِلِنَا   فيارَجُ الوَرْدُ والأنداءُ ، والظّللُ

علال الخياري
(المغرب)

مصادر الشعور بالكآبة في ديوان "أغاني الحياة"

بقلم : المنصف الجزار

– 2 – (*)

الأطروحة الثالثة : أقامت صلة وثيقة بين تشاؤم الشعر ونزعة الكآبة الواضحة فى شعره ٠ فقد حاول محمد الحليوى أن يضع اطارا لدراسة تشاؤم الشابى فلاحظ ان الشاعر مر بثلاثة اطوار: طور التشاؤم القاتم وكان الشابى فى هذا الطور ينحو منحى جبران وينكب على مطالعة لزوميات المعرى ولم يكن لتشاؤم هذه المرحلة سبب معروف غير هذا ٠ اما تشاؤم الطور الثانى فكان مصحوبا بالتعليل وكان قائما على الحيرة والقلق ٠ ما نحن ؟ ما الحياة ؟ ما الموت ؟ اما الطور الثالث من اطوار تشاؤمه فتبدد فيه شىء من غيوم الكآبة وأشرقت فى ظلمات حياته ومضات من الامل ٠٠٠ (14)

تبدو ميزة هذه الاطروحة فى النظرة التطورية لدراسة الظاهرة الواحدة وتبين وحدات متميزة مرت بها الا أن حديث الحليوى عام يفتقد الرجوع الى المدونة الشعرية بل هو يبرر هذا التبدل باصطياف الشابى فى عين دراهم عام 1932 لما فيها من المناظر الجميلة ، ثم لأثر شعر لامرتين فى عقله الباطنى ٠٠٠ (15)

(*) انظر « الفكر » ع : 3 – س 30 – ديسمبر 1984 .

(14) محمد الحليوى : مع الشابى ص 78 ٠٠٠

(15) نفس المرجع ص 94 ٠٠٠

ونحن لا نوافق على مشروع التقسيم الذى اقترحه الحليوى لأنه يعتمد منهجا هشا يقوم على صداقته للشابى ورسائل الشاعر الى جانب مذكراته لتفسير تلون الغرض فى ديوان أغانى الحياة ٠

ان عرضنا هذه الاطروحات الثلاث لا ينفي كذلك ظهور بعض الاراء المتفرقة والتى آثرنا عدم عرضها لأنها ظهرت فى شكل أحلام عامة تفتقد الى البينة ٠ (16)

فما هو المنهج الذى نقترحه لدراسة هذا الغرض المخصوص فى الديوان ؟ ٠

ان دراسة الكآبة في ديوان الشابى تتطلب منا أساسا :

أولا : الرجوع الى المدونة الشعرية لتقصى معانى الكآبة ٠

ثانيا : ضبط النسيج العام الذى ينزل فيه حديث الكآبة ٠

ثالثا : تبين منزلة هذه الظاهرة فى الحال الشعرية خصوصا والتجربة الشعرية عموما ٠

تمسح الكآبة مساحة هامة من ديوان الشابى ونجد لها صدى فى ما يقارب الخمسين قصيدة وقطعة ٠ فقد اعتمدنا اذن مدونة ضخمة تضم ما يناهز نصف الديوان . تحدث الشابى عن كآبته وقابلها بكآبة الآخرين ولعل تبين التمييز يبرز أهم المعطيات ٠٠٠ فكآبة الشابى ـ كما حددها في الديوان ـ فكرة مجهولة :

كآبتي فكرة مفردة مجهولة من مسامع الزمن ٠ (17)

---

(16) من ذلك مثلا موقف محسن بن حميدة فى استفتاء الفكر اكتوبر 1956 ص 32 ، يقول : ليس من التطرف او التكلف او الاجحاف ان اقول ان ما يبدو فى شعر الشابى من حزن او اسى او خيبة ان هى الا مظهر من مظاهر الحياة نفسها فى سيرها نحو الكمال وصراعها فى سبيل الوجود سحره ونوره ٠

(17) قصيدة الكآبة المجهولة ٠ أوت 1926 ٠

وكـآبته لوعـة :

امـا كـآبتي فلـوعـة سكنـت روحي ، وتبقـى بها الى الأبـد (18)

وكـآبته وحـدة :

كئيـب ، وحيـد بـآلامـه وأحـلامه ، شـدوه الانتحـاب (19)

وهي كذلك غربـة :

يـا صميم الحياة ! كم أنا فى الدنيـا غـريب ! أشقى بغـربة نفسى (20)

أما كآبة الآخرين فشعلة :

كـآبـة النـاس شعلـة ، ومتـى مـرت ليـال خبت مـع الأمـد (21)

والتفات الى الماضـى :

والشقـي الشقي فـى الأرض قلـب يـومه ميـت ، ومـاضـيه حـي (22)

ففى حين تبدو كـآبة الآخرين مؤطرة فى اطار زمانى محدد حيث تولـد شقاء وأسـى مؤقتا سرعان ما يتم تجاوزه الى حال أخرى مـن الاقبال علـى الدنيا السخيفة تكون كـآبة الشاعر حالة دائمة ممتدة فى الزمان اذ سكنت الروح ، فهى بذلك خالفت نظائرهـا وصارت متميزة بطابعهـا المخصوص المتصل بالشاعر فقـد استحالت الى عنصر فصل بين الشاعر والآخريـن الذين يعيشـون فى اطار مغاير لمقومات حياة الشاعر الذى يعيش على الدوام داخل وطن الكآبة والفت روحه ذلك فلم يعد يضيق ذرعا به على طريقة الآخرين الذين تولد عندهم الكـآبة الشقاء والاسى والضيق وصارت تفرز فى الشاعر شعورا عميقا بأن طبيعة الحياة تفرض دوام الكـآبـة يقـول :

غننـى صـوت الظـلام المكتئـب انـنـى اهـواه (23)

---

(18) نفس المرجـع .
(19) قصيدة السآمـة . مارس 1927 .
(20) قصيدة الاشواق التائهة . ديسمبر 1930 .
(21) قصيدة الكآبة المجهولة . أوت 1926 .
(22) قصيدة الى الشعب . اكتوبر 1933 .
(23) قصيـدة : اغنية الاحزان . افريل 1927 .

او قوله كذلك :

ليس فــي الدهــر طائـــر يتغنـــى في ضفاف الحيـاة غير كئيـب (24)

ان المقارنة بين كـآبة الشاعر كمـا تحدث عنهـا فى شعـره وكـآبـة الآخرين استحالت الى مفارقة وهذه المفارقة تؤكد ان كـآبة الشـابى لهـا مدلول جديد متميز عن المدلول المتداول • فما هـى ركائـز هذا الشعـور المتميـــز ؟•

لا يمكن فهم طبيعة هذا الشعـور الا بربطه بظاهرة الحـزن لأنها أصـل الوجود البشرى :

••• فما الحزن الا غذاء الحياة (25)

ترجو السعادة يا قلبـي ولو وجـدت في الكون لم يشتغل حزن ولا ألم (26)

فالحزن مهجة الكون وتبدو ملامحـه علـى الدهر والحياة والقلـب الا أن انعكـاسه على النفس والقلب ولد الشعـور بالكـآبة . فالحزن معطى أرضى وجودى اما انعكاسه على النفس فيفرز فكرة مجهولة وشعورا غريبا ودفعـا وعزما • وحديـث الشاعر عـن الحزن فى الديوان كثيرا مـا اقترن بقرائن البكاء والشدو والشقاء ومثل بذلك الأرضية التى يتم الانتقال منها الى وطن الكـآبـة • فقد تميز المجال اللغوى الذى ظهر فيه استعمال لفظ الكـآبـة بوضعه فى مدار كونى رحب لا يثير الالم والبكاء بقدر ما يبعث على التأمـل فى مجال النفس أحيانـــا :

مهمـا تضـاحكـــت الحيـــــاة فـانـنـــى ابـــدا كـئـيـــب
اصغـــى لأوجـاع الكـآبـــة والكـآبـــة لا تجيـــب (27)

الى جانب التأمل فى مقومات الكون أحيانا أخرى :

هكـذا يلجـم المنـون فـــؤادى وتهـب الحقـائـــق الخالـدات (28)

---

(24) قصيـــدة : ايها لليل • جوان 1927 •
(25) قصيـــدة : الى الموت • أوت 1928 •
(26) قصيـــدة : السعادة • جانفــى 1933 •
(27) قصيـــدة : نشيد الاسى • اكتوبر 1928 .
(28) قصيـــدة : دموع الالم • جانفى 1928 •

ان الكآبة بالمفهوم الذى ضبطه الشاعر لا تثير فينا الشفقة والرحمة ولكنها مقابل ذلك تسمو بالقارىء وتؤكد له ان الشابى وجد معينا خصبا ينهل منه لفهم سر الوجود والنطق به ، وصارت بذلك معطى ضروريا للتفاعل مع الكون . وما الشعر عنده فى نهاية الامر سوى فم الشعور وصرخة الروح الكئيب . ولعل هذا الشعور الحاد بالمأساة الكونية نجم عن شعوره انه فى مذهب الحياة نبنى ·

واليوم احيا مرهق الاعصاب ، مشبوب الشعور
متأجج الاحساس ، أحفل بالعظيم وبالحقير
تمشي على قلبي الحياة ، ويزحف الكون الكبير
هذا مصيرى ، يا بنى الدنيا فما اشقى المصير ! (29)

ان رهافة حس الشاعر جعلته يشعر بأنه يحمل وزر الحياة على قلبه ـ الأبد الصغير ـ فتلبس به شعور غريب لازمه كامل مسيرته الشعرية وولد فيه معاشرة الكآبة للنطق بسر الكون الأبدى فى رسالة مقدسة هى رسالة الشعر الساعي نحو الحقيقة والكاشف عنها :

يا شعر أنت فم الشعور وصرخة الروح الكئيب
يا شعر أنت دم ، تفجر من كلوم الكائنات (30)

واذا كانت الكآبة عند الآخرين ضيقا وشعورا بالاختناق يسعون الى تجاوزه وتخطيه الى حال من السرور الزائف ـ حسب الشاعر ـ فانها اتخذت معنى جديدا فى استعمالات الشابى المختلطة حيث تصبح تبعا لما تقدم عرضه انفتاحا على الكون ومعانقة له وتفاعلا مع سر الوجود الرحب الخطير · فتكون الكآبة معراجا نحو التسامي ووسيلة الشابى الى الذوبان فى الكون على شواطىء الازل أو فى ضفاف الحياة . واذا اتخذت الظاهرة هذا البعد الفذ فى شعر الشابى فان ذلك يعود أصلا الى شخصية الشابى وفلسفته الخاصة فى الوجود التى قد تكون تأثرت فى نسيجها العام ببعض تجارب الآخرين ـ وهو أمر طبيعي وضرورى يواكبه كل وجود بشرى ـ الا انها تبقى متعلقة بالشابى الانسان أكثر من تعلقها بالشابى الشاعر المتفاعل مع نصوص الشعراء الآخرين الغائبة ·

---

(29) قصيدة : الجنة الضائعة · جانفى 1933 ·
(30) قصيدة : يا شعر · جانفى 1927 ·

صور الشابى فى أشعاره بشكل تصريحيّ فى كثير من الأحيان العوامل التى ضاق بها الشابى الانسان فأخرجته الى هذا المدار الكونى الرحب . ويمكن أن نتبين ثلاثة عوامل رئيسية تحدد معالم هذه الفكرة المجهولة التى استبدت بالشابى .

العامل الأول : عامل ظرفى يعود الى شعور حاد بعسر التأقلم مع المحيط الذى يعيش داخله الشابى ويشترك فيه مع الآخرين فقد كان يضيق ذرعا بحياة المدينة وفرضت عليه ظروفه الاقامة بها فضاق بها ونفر منها :

ماذا أود من المدينة وهى مرتاد لكل دعارة وفجور ؟ (31)

والاقامة بالمدينة فرضت عليه التواصل مع الآخرين فنقم على شعبه لأنه لا شوق له ولا عزم :

انت قلب ، لا شوق فيه ولا عزم وهذا داء الحياة الدوي (32)

وصار يعيش فى فلك الحياة :

والشقي الشقي من كان مثلى فى حساسيتي ورقة نفسي (33)

فى حين بقى شعبه يعيش فى أفق الماضى :

انت دنيا يظلها افق الماضى وليل الكآبة الابدي
مات فيها الزمان والكون الا امسها الغابر القديم القصي (34)

ولدت هذه القطيعة بين الشابى وبيئته شعورا بالضياع فليس من باب الصدفة أن يعنون عددا من قصائده : صوت تائه . قبضة من ضباب . أغانى التائه . الى قلبى التائه . الأشواق التائهة . شكوى ضائعة ...

(يتبع)
المنصف الجزار

---

(31) قصيدة . مناجاة عصفور . جويلية 1928 .
(32) قصيدة : الى الشعب . اكتوبر 1932 .
(33) قصيدة : النبى المجهول . جوان 1930 .
(34) قصيدة : الى الشعب . أكتوبر 1933 .

الغريب

شعر: محمد بن صابر

... وتلظّت النّيـران في صدري لهيبا عاصفـا
زاغت لـه الأبصـار إذ لمحتـه برقا خاطفـا
يجري بألسنـة دوت في الكون رعدا قاصفـا
طارت به من شـدّة الهلع القلـوبْ

★ ★ ★

رجـف الوجود لهـول ذلك مستطيرا واجفـا
هـذي أعاصير عتـت فارتـاع منها راجفـا
رعـدت فرائصه من الفـزع المساور خـائفـا
والرّعب قد سكن النفـوس من الخطوبْ

★ ★ ★

وقف الجمـال وقد تغيّـر للعـواصف آسفـا
يبـدو الشحوب بوجهـه لبس الكـآبة آلفـا
والدمع منهمر على خديـه يحكـي واكفـا
ينهلّ غمرا ليس يعرف من نضـوبْ

★ ★ ★

البدر في سجف تجلله تبرقع خاسفا
والشمس حيرى في شعاع لاح منها كاسفا
عن غيمها لم تلق من بين الكواكب كاشفا
حتى تهاوت نحو أحضان الغروب

* * *

البحر في صخب فمن داناه أمسى تالفا
والسّيل طاغ عارم حمل البريئة جارفا
لم يبق فوق الأرض حقٌ تالدا أو طارفا
أسجى على الدنيا جلابيب الغيوبْ

* * *

يا غضبة المظلوم يفني كل شيء ناسفا
ويبيد ما لاَقي ، تراه عن التبصر عازفا
قد كان فيك الموت للاعدا بأرضي آزفا
في صيحة دوّت من المهد السليبْ

* * *

أرضي بها عبث الدخيل وراح يلهو قاصفا
قد ضلّ يشرب من دم الابناء علاّ راشفا
نشوان في صلف تراه على المدامة عاكفا
حتى غدوا ما في بلادهمُ نصيبْ

* * *

قد جال ما بين الرحاب لكل زهر قاطفا
متفيّئا من ربعهم ظلا ترامى وارفا

أخذ الحياة ينيلهم منها خيالا زائفا
من دونهم قد راح بالغصن الرطيبْ

★ ★ ★

يا ذلهم إياه رغم الحرص لم أك واصفا
وطىء الأنوف بمنسم ولهم يدوس عواطفا
يمسي ويصبح بالمغامز والمثالب قاذفا
ورماهمُ سفها بأصناف العيوبْ

★ ★ ★

عرب : عقار متعة ، ولبئس ذاك مرادفا
أضحى له الخذلان دوما في الطريق محالفا
كم حاد عن نهج الرقيّ مراوغا ومخالفا
ألقى بعزته إلى سجن رهيبْ

★ ★ ★

عاشوا على الأطلال من مجد تقادم سالفا
يرعون حلما قد مضى بالأمس يخطر طائفا
الوهم أوْدى بالعروبة عن يقين صارفا
هذا هو العربيّ في وطن غريبْ

محمد بن صابر

بين المحضر والسرير

قصة : صالح الدمس

أدخل ، يده فى جيب السروال الرمادى ، أخرج المفتاح ، أدخله فى ثقب القفل ، أدار المفتاح ، دفع الباب ، قال لها :

ـ ادخلى ٠

مرقت الى الداخل ، جذب المفتاح من القفل ، أغلق الباب ، امتدت يده فى الظلام الى زر فى الحائط ، ضغط عليه ، أنار فضاء الممر الضيق الذى يفصل الحجرتين الصغيرتين ويؤدى الى بيت الراحة وشبه المطبخ ، أدار مزلاج احدى الغرفتين وقال لها :

ـ ادخلى ٠

امتدت يده ثانية تبحث عن زر النور ، وجده أضاء البيت ٠

ـ اقعدى ٠

أنزلت السفسارى عن كتفيها ، فتعرى شعرها الفحمى منسابا فى خصلتين اجتازتا ثدييها ، قالت له :

ـ اذن تنام هنا ؟

ـ نعم ،أنا هنا ، وصديقى فى الحجرة المقابلة تخلت عن السفارى ، رمت به الى حافة السرير الضيق ٠

ـ هيا اذن بسرعة ، قبل أن يجىء صاحبك ٠.٠

ـ كم أنت مستعجلة ، صاحبى لن يأتى الآن ، لقد أعلمته بقدومك ، نحن متفقان ألا نأكل من نفس الطبق ٠

ـ على كل حال ، أتى أو لم يأت علينا ان نسرع ، أنت تعرف أنى لست من المحترفات ، مرتين أو ثلاثا فى الاسبوع ٠

نزع جمازته ، علقها على مسمار دق خلف الباب ٠٠

ـ ما اسمك ؟

وضعت رجليها على السرير ، اتكأت على الوسادة الوحيدة ٠

ـ سريرك ضيق !

انحنى يحل ربطة الحذاء ، جذب الجوربين ، وضع كل واحدة فى فردة ٠

ـ من الجنوب أنت ؟

ـ لا

ـ من الوسط ؟

ـ لا

فتح باب الغرفة ووضع فردتى الحذاء خارجها ، أغلق الباب أدار المفتاح ، نزع بقية ثيابه ، بقى فى تبان أبيض ٠

ـ بكم اكتريت هذه الشقة ؟

أخذ علبة السجائر ، وضعها على صندوق قرب السرير ، أشعل سجارة ٠

ـ تدخنين ؟

ـ هـات ٠

أعطاها السجارة التى أشعلها ، أخرج أخرى ، تكومت حلقات بيضاء فى أرجاء الحجرة الصغيرة ٠

قال لها :

ـ من أية قرية أنت ؟

ـ لماذا تلح ٠٠ نحن لسنا فى مركز شرطة ، ولست عاملة مـن عـامـلات مصلحتك ٠

ـ أحب معرفة مصدر اللحم ٠

ـ لحم ؟!

لصقها ، امتدت يده الى ركبتيها ، رفعت ثيابها ٠

ـ انزعى ٠

ـ قلت لك :

ـ يجب أن تسرع ٠٠ سأنزع في المرة القادمة هيا ٠٠

وضع يده اليسرى تحت رأسها ٠

ـ أطفىء السجارة ٠

رمى بالعقب بجانب السرير ، جذبها اليه ، أدخل يده في حشايا ثيابها ٠

ـ ما أبرد يديك !

ـ قلت لك : من أية قرية أنت ؟

ـ من تونس ٠

ـ تونس ؟

ـ نعم تونس ! ما بالك بهت ؟ أليس في نساء تونس من ٠٠!؟

ـ لا ، في العادة كلهن من الارياف والقرى النائية ٠

ـ لا تضغط كثيرا ٠٠

جذب الغطاء الى آخر السرير وبقي يتفرج .. عقب السجارة المطروح فوق الارض لا يزال يدفع بدوائر بيضاء ٠

ـ اجذب اللحاف الى فوق ، الدنيا باردة ، فيم تتفرج ؟ انظر الى وجهي أفضل ٠

جذب اللحاف من جديد الى فوق ، غطى جسمه المنحني فوقها ، تكونت خيمة صغيرة ٠

ـ كم دفعوا لك ؟

ـ عشرة دنانير ٠

ـ اذن لماذا حدثت لك معهم مشاجرة ٠٠ ألا يكفيك !؟

ـ لا تضغط كثيرا ٠٠ اتفقت معهم وكانوا ثلاثة ، أحدهم أراد أن يستدعي جماعة أخرى ، رفضت ، خرجت الى الشارع ، لحقوا بي ٠

ـ ما أجمل رائحة عطرك !

ـ ٠٠٠ ساوموني فرفضت ، كنا أمام باب العمارة ، حين رأيتنا ، فروا ، وبقيت أنا مسمرة في مكاني ٠٠٠

ـ ضعي يدك خلف عنقي ، ضميني ٠

ـ ٠٠ أمرتني بالمجيء ، خلتك والله عون سري ، ذعرت ، أتيتك ، كنت خائفة مشيت بجانبك ، في الطريق خيرتني بين المحضر والسرير ٠٠ لو أني كنت أدري أنك لست شرطيا لما أتيت معك ٠

تدحرج بجانبها ، يلهث ٠٠ صمتا لحظات ، استوت في جلستها تلبس ما نزعت من ثيابها ٠

ـ سي الهادي ٠٠ أنت تعرف متاعب هذه المهنة ٠٠ لو حدث لي مشكل أرجوك أن تقف بجانبي ٠٠٠ أبناء الحرام كثيرون ٠

ـ لا تخافي ، سأدلك على الادارة التي أشتغل بها ، عندي معارف كثيرون، لو أقلقك أحد ، أنا موجود ٠

نزلت من فوق السرير ٠

ـ عندي دينار تأخذينه !؟

أدخلت رجليها في الحذاء ٠

ـ أنا وأنت لا نتعامل بالمال ٠٠ مزيتك أغلى ، نهض من السرير ، لحقها ، مسك رأسها ، وانحنى على عنقها يقبلها بجوع ٠

ـ لا تترك بصماتك على عنقي ٠

ـ أرجو ألا تنسى عنوان الشقة ٠

ـ حفظته جيدا ٠٠ لا تخف ٠ قلت لك في كل مرة يقع لي مشكل ، آتيك أولا للادارة ، ثم ٠٠٠

ـ ثم ٠٠٠

ـ ٠٠٠٠ للشقة ٠

وضعت يدها على مزلاج الحجرة ، فتحت الباب ، وكان عقب السجارة لا يزال يرسل خيطا ناعما من الدخان الابيض ، وضعت رجلها فوقه ، داسته بحذائها وانصرفت ٠

صالح الدمس

لا خيار في الشعر

بقلم : حميده الصولي

يبدو ان الميدان الاكثر صعوبة في حالة المفاضلة هو ميدان الشعر .. أي محاولة تفضيل هذا الشعر عن ذاك طبق مواصفات قد تكون مستساغة عند هذا وذاك الا انها ربما لن تكون كذلك عند غيرهما . فالتجربة أكدت ان كل لون من ألوان الشعر يتميز بميزات تجعله محببا عند فريق من الناس .. تماما مثل الالوان الاخرى .. لذلك يصعب وربما يستحيل اختزال اذواق الناس جميعا باتجاه لون واحد نطلق عليه صفة « الشعر المفضل » على الاطلاق ·· وبالتالي نعتبره المقياس الذي اذا تمردت عليه ألوان أخرى أصبح شيئا آخر غير الشعر . شخصيا أعتقد ان زمن المفاضلة .. وتنصيب الامبراطوريات وإلباس التاج قد ولت جميعها وبقي فقط الشعر .

هل هناك شعر أم لا ؟ هذا هو السؤال الذي يطرح باستمرار حاضرا من طرف المهتمين .. الذين يجب عليهم معاملة الاشعار كلها على انها مستويات من الابداع .. وبالتالي فان مهمة النقاد والمهتمين عموما هي ملاحظة نسب التطور في الصورة الشعرية والعلاقات العضوية بين المفردات والجمل لتشكيل الصورة الشعرية .. تماما مثل ملاحظة الدقة في تجسيد الفكرة لغة وايحاءات .. واعتبار الموضوع في الدرجة الاخيرة باعتباره في متناول الجميع.

وهنا يجب أن لا نغفل ملاحظة تقول : ان لا يعتبر الشعر شعرا الا اذا توفرت فيه اللغة السليمة والصورة المحركة الاعماق والتي تحول الجوامد الى متحركات تتراقص في مسرح الذهن والمخيلة وهو بالتالي ــ أي الشعر ــ الذي يمس شغاف الاحاسيس فيفجر فيها براكين لا تهدأ ·· ولابد أيضا من اعتبار الشكل الفني المميز والمناسب لكل لغة حتى لا تختلط الاوراق وتنعدم الهوية . كما أنه لا بد من طرح سؤال بعد قراءة كل عمل حول نسبة الاضافة

التى قدمها هذا العمل للشعر الانسانى عموما .. ولشعر تلك اللغة بوجه أخص .. لان كل كتابة لا تضيف جديدا أحرى بها ان لا تكون ...

هذه الملاحظات حركتها فى ذهنى قراءتى لمجموعة شعرية صدرت مؤخرا تحت عنوان : « ألواح » للاستاذ الشاعر منصف الوهايبى احتوت هذه المجموعة ثلاثا وعشرين قصيدة تتراوح بين الطويلة والقصيرة جدا والمتوسطة .. توزعت على مساحة ورقية عددها 68 صفحة من الحجم العادى لدواوين الشعر .

أول ما يلفت الانتباه فى هذه المجموعة تقسيم الشاعر لها الى عناوين كبيرة تتضمن عناوين القصائد جاءت فى شكل أبواب عامة فكانت كما يلي :

ـ مراثى الملك ـ القصيدة العربية ـ قصائد أولى .

هذا التقسيم لم يكن اعتباطا .. فالشاعر يعي جيدا مراحل الشعر العربى والتاريخ العربى وكثيرا من الشعر الانسانى وما مر به من بعدى التخلي والامتداد .. وهو مطلع على الوقائع التى خلفت بصماتها فى الشعر العربى خاصة . ثم ان اهتمامه بالفلسفة الاشراقية قد عمق فيه الوعي بتدرج الفكر العربى عبر مراحله حتى انتكاسات بعض الاطروحات الحالية . يقول :

كنت أعلن للماء والنار والريح
ان البلاد الاريضة واحدة
والبحار الوضيئة واحدة ،
كنت أبحث فى الوطن العربى
عن الوطن العربى
فحاصرنى عسس واقتفوا حلمي
فانسللت الى جسدي واختبأت (ص : 39 ، ألواح »)

ولكن ذلك لا يعني انه تخلى .. فايمانه « ان البلاد الاريضة واحدة » لم يتزعزع . انما مؤقتا سكت عن البحث .. وسيستأنفه . وقد حاول ضمن بحثه اسقاط الاحداث التاريخية التى يزخر بها التاريخ العربى على الاحداث التى يعيشها الواقع العربى الحالى .. فكان يرصد اللحظات ويضعها فى مصفاة اللغة فى عز تجلياتها لينحت منها صوره الشعرية العميقة الجذور والتى تحبل بالاحداث والوقائع .. تلك الصور المشحونة بالافكار والتفاعلات الحضارية .. الضاربة عروقها فى قرارة الحضارة العربية من دون تدحرج فى التقريرية أو الغموض المبهم .. وحتى بعض الغموض الذى يلحق بعض قصائده تشفعه له الومضات التى ترسلها الكوى المفضية بنورها الى قلب الهدف . اما الجو الذى

قدم فيه قصائده مختارا .. فانه ذلك المتصل بالطقوس والقداسة والرهبة أحيانا :

ها انت تبلغ باب الله مرتبكا
الوجه منخطف والروح مشتعل (ص : 12 « ألواح »)

ولعله بذلك يبحث عن القداسة التى كانت تجلل الشعر العربى .. وهنا ألاحظ بأن التزامه للعروض العربى تأكيد صريح للهوية وايمان بها .

من خلال التقسيم المذكور وبالاطلاع على قصائده جملة وتفصيلا يتضح ان الشاعر أراد أن يرسم ثلاث مراحل للانسان العربى .. وللثقافة العربية .. وخاصة للقصيدة العربية .. وهو أيضا يفند القناعة القائلة بالهالات والنموذجية الزائفة .. وهو أراد من خلال شعره تذكيرنا بأن التاريخ العربى يزخر بالبطولات وأشكال الانجازات الا انه يضيف أخيرا ان ذلك وحده لا يكفى .. وان الرجوع الى التاريخ لا يبرر تخلينا عن الاضافة للحضارة الانسانية .. وبالتالى فتلك العظمة لا بد أن تستمر وان دورنا ما زال ينتظرنا.

فى المرحلة الثالثة من مجموعته « ألواح » تحت عنوان : « قصائد أولى » يبادر الشاعر بعملية التأسيس .. ويتجه الى عصره فاحصا أمراضه من خلال مشاكله اليومية .. والادعاءات المتواصلة حول التطور الحضارى الخ ... ويشير بأسلوب فني ـ شعري ـ واضح وسهل / صعب أحيانا الى ما يسببه هذا الادعاء من ضحايا داعيا بشكل خفي عبر الايحاء الى البحث عن مكان وأسباب الخطا والانحرافات .

أشعار الوهايبى فى هذه المجموعة تتميز بقوة لغتها واصالة صورتها وايحائيتها شعرا .. فكانما يدعو الى البحث عن لغة جديدة فى اعماق اللغة العربية من خلال اقحامه لمفردات غير مستعملة حاضرا .. وتشكيله الفني لصوره عبر تلك اللغة الجديدة انما لمعانقة الهم الجماعي عربيا وايضا فى المستوى الانسانى .. وهذا جاء فى ثوب متسم بالسحر والدوران فى فلك التاريخ الطويل من خلال الواقع ، وهذه احدى قصائده الاولى :

ماسح الاحذية

ماسح الاحذية
كان فوق الرصيف
يغني ويحلم بالخبز والعافيه
أغنياء المدينة مروا ولم يقفوا
فقراء المدينة مروا ولن يقفوا
وهو ينقر ـ منتظرا ـ فوق صندوقه
ويحدق فى الأرجل العابره

اقبلت فى الظهيرة سياره
ترجل سائقها .. مد ساقا
الى الماسح المترقب
فارتفعت يده فجاة
تصبغ الوجه والبدلة الفاخره
تصبغ الوجه والبدلة الفاخره (ص66)

قراءات سريعة

• **البقعة الخضراء :**

صدر عن الدار العربية للكتاب بتاريخ 1984 الطبعة الثانية من رواية بعنوان : « البقعة الخضراء » لقاسم الخطاط وكانت الطبعة الاولى قد صدرت بالقاهرة سنة 1963 بعنوان : « الملكة الكادحة ؟ » .

وكتاب « البقعة الخضراء » التى صدرت منذ أكثر من عشرين سنة تمثل أول رواية عربية علمية تنبئية على غرار روايات « جول فرن » وروايات العلم الخيالى التى لا يفتأ تقدم العلم والتكنولوجيا أن يحقق تخيلاتها .

كما لا تخلو الرواية من قصة حب مؤثرة ومن تطلعات العالم العربى الى الوحدة والقوة والرقى .

وفى رأينا رواية « البقعة الخضراء » على قدم زمن كتابتها لا تـزال حـالية وجديرة بالقراءة فيا حبذا لو يقع إثراء الادب العربى بمثل هـذا النـوع من الروايـات .

• **سيـاسة واستراتيجيـا :**

اتصلت مجلة « الفكر » من « سياسة واستراتيجيا » مشكورة بمجموعة من كتيبات صدرت عن دار نعمان للثقافة اثنان منها لناجى نعمان وهما : « خمس وعشرون » و « أنت والوطن » وواحد لجهاد نعمان « المليشية » وواحد لقيصر غصوب « ريف » وآخر لنسيم خوري « ترانيم الامة الخرساء » .

وإن كانت الكتيبات الخمسة تتناول أو تشير الى الـواقع العربى بمشاكله ومآسيه الا انها تتفاوت فى عمق الوعى ولون التعبير ونضج الرؤية واحترام الكتابة والقارىء .

وإن كانت « ترانيم الامة الخرساء » تضج بالوصف العارى الملتهب بالتعبير الدسم العنيف وبالتجسيد أحيانا والمأساة الكبرى وإن كانت « المليشية »

تبرز ظاهرة اجتماعية متفشية خاصة فى لبنان بمساوئها الفظيعة لتعدد التنوع الدينى والطائفى والملى فيه وتحاول الحث على القضاء عليها فان « ريف » على ما فيه من مشاعر الابوةوالحنين لا يستوى والخلق الادبى والتعبير الشعرى وأما « أنت والوطن » فلا يجوز بحال أن يتقبله القارىء كتابا وإن كتيبا ولو كان مشحونا بحب الوطن المصلوب والحسرة عليه بينما محتواه لا يمكن أن يشغل أكثر من صفحتين والا جاز لنا أن نتصور مستقبلا كتابا أو كتيبا كل صفحاته بيضاء لا تحمل غير ارقامها .

• مسرح عز الدين المدنى والتراث :

صدر عن دار رسم للنشر لمحمد المديونى دراسة لمسرح المدنى تحت عنوان : « مسرح عز الدين المدنى والتراث » .

ولقد رأينا فى السنوات الاخيرة اهتماما خاصا بالتراث ومحاولات عديدة لقراءته وفهمه واستقرائه وتوظيفه وبالتالى إحيائه كرد فعل ضد الظواهر الكثيرة للغزو الثقافى الغربى وعز الدين المدنى له أكثر من أثر فى هذا التوظيف حاول من خلالها محمد المديونى أن يقيم تجربة المدنى ومؤلف الكتاب غير بعيد عن الاسرة المسرحية تأليفا واقتباسا واخراجا .

فبعد أن حدد المديونى المادة التراثية بمكوناتها التاريخية والادبية والاسلوبية تناول تحليل طبيعة تعامل المدنى معها مركزا على فنيات التزامن والتركيب متخلصا بعد ذلك الى التوظيف المستعمل لطرح قضايا العصر المصيرية كاشكالية الحكم وعلاقة الحكام بالمحكومين ووضعية المثقفين ودورهم وغيرها مدعما ذلك بأدلة نصية وركحية ومبينا ما فى الآثار المدروسة من وحدة وتكامل عمل جاد قام به المديونى يمكن اعتباره نقطة انطلاق وخطوة أولى لبحث أوسع مقارن للتجارب الريادية فى المسرح المعاصر لتحديد مادتها ضمنيا ومدى نجاحها ركحيا وأبعادها ثقافيا .

ولنا ملاحظة شكلية موجهة الى دار رسم للنشر الفتية تتمثل فى أن الكتاب ما يكاد يتصفحه القارىء حتى تتناثر أوراقه بين يديه .

• قلب الأم :

رواية لجمعة محمد جمعة فازت بجائزة من مجمع اللغة العربية بالقاهرة صدرت سنة 1983 تدور أحداثها بمصر أثناء الحرب التى رجت وقائعها الشرق العربى وخلفت جروحا لا تندمل ومآسى عائلية خطيرة المخلفات النفسانية .

لغة الرواية على غزارة فحواها لغة غير مكتملة ولا راسخة هى أقرب الى لغة الصحافة منها الى لغة الادب قد يعود مرجعها الى أن جمعة محمد جمعة تكوينه غير أدبي اذ كانت دراسته تجارية خاصة وهو يعمل حاليا بالمصرف العربى الدولى .

• مهاترة فى فكر :

صدر لعبد الرحمان أيوب كناش لوحات قصصيّة تحت عنوان : «مهاترة فى فكر» بتاريخ 1984 وهى مجموعة تسجيلات لاحداث شخصية لكن لها صلة ماسة بالواقع التونسى والشباب التونسى فى تونس حينا وفى بلاد الغربة أحيانا فيها غنى بالتطلعات والطموحات (فى لغة خفيفة ساخرة) واقعية فى وصفها لحالة الطفل التونسى الفقير المعرض للهجومات الساخرة المجانية لمعلمه الفرنسى الذى لا يترك فرصة تمر دون أن يسلط عليه وابل شتمه وسبه وتحقيره وشديد عقابه فى شيء من التلذذ المرضى والتشفى السادى وفى تصوير حالات الشاب التونسى النفسية المتشابكة المتضاربة أحيانا فى ذلك العالم الغربى الغريب والعجيب فى آن واحد بلغة تتخللها (وأظن ذلك مقصودا) الالفاظ والتعابير المصورة والموحية لكن غير الفصيحة والانسياقات الماورائية .

ونظن وهذا رأينا الخاص جدا أن هذا النوع من التعبير والعرض يمكنه فى جدته وطرافته فى الانشاء الادبى أن يكون مثريا ـ ان حظى بمزيد صقل ودعم ـ متانة وتهذيبا .

• المتنبي بعد ألف عام :

أصدر الاديب الشاعر محمد جواد الغبان فى كتيب ظريف لطيف القصيد الذى نظمه بمناسبة المهرجان الألفى الذى انعقد ببغداد من 5 الى 10 نوفمبر 1977 احياء لذكرى شاعر العروبة الكبير الخالد الذكر أبى الطيب المتنبى .

ومن المعلوم أن مقاطع من هذا القصيد الطويل الذى يحتوى على 160 بيتا قد وردت فى مجلات بالعراق وغيرها من البلاد العربية لكنه يصدر اليوم (بتاريخ 1984) كاملا .

والقصيد لطيف وموفق فى تمجيد المتنبي وتنزيهه عما اتهم به مع لطيف الاشارة وجميل التلميح وموفق التضمين كما تجدر الاشارة الى أن محمد جواد الغبان نظم قصيده هذا على أحد الاوزان التى كان يميل المتنبي الى النظم على بحرها .

• **الأخـلاء في سنتها السابعة :**

يتواصل نشاط **الشاعر الصادق شرف** في استمرار صدور «الأخلاء» بانتظام بل وبتكثف اذ يبشرنا بأن « الأخـلاء » ستصبح نصف شهرية وفي هذا مراهنة صعبة نعلم أن الصادق شرف قادر على مجابهتها لكن الذى نخافه هو أنه بالرغم من الزاد الذى توفر لديه سيجد نفسه يوما مضطرا الى عدم الوفاء بوعده أو مرغما على التنازل عن الكيف فى سبيل تلبية الكم ولكن لاحرج فى ذلك ما دام متيقنا من أن رسالته هى فتح باب التنفس للأقلام الواعدة وتمكين الشبان من فرصة تبليغ انتاجهم لجمهور القراء ثم اثراء الانتاج التونسى وليس هذا بقليل ، وله على ذلك أجر كبير ، ثم سيبقى فى الساحة ما يرضى عنه القراء وما هو جدير حقا بالبقاء .

وبين أيدينا الثلاثة أعداد الاخيرة من « الأخلاء » : 41 ــ 42 ــ 43 فالعدد 41 مجموعة شعرية أولى لشاعر شاب من توزر هو محمد الطاهر الحضرى تحت عنوان : « النخل إذ يشهق » التى وإن تنوعت مواضيعها تتحد فى التحسر على حالة الاعمال المؤسفة التى عليها الجانب الخاص الجهوى (حالة النخيل والجريد البائنة جليا فى عنوان المجموعة) والجانب العربى العام المشترك الميؤوس منه :

وما بالنيل حتى لو يغير وجهه أمـل ولا حتـى الـفـرات
كل الوجوه امامنا مرسومة غلطـا فقـومـي مـن عـروبتهـم عـراة

والعدد 42 مجموعة شعرية أولى أيضا « كلمات للحب والـوطن » لمحمد المهدي بن نصيب وهو شاعر شاب من الجنوب أيضا (العوينة دوز) يتحسس فى تؤدة وبساطة طريفة فى رمانسية هادئة وحزن لطيف وأحلام ساذجة لكن مثيرة وحسرة بعيدة عن الثورة والغضب :

« **وأحلم .. أحلم .. احلم .. لكن .. هل الحلم يشفي فؤادي ؟** »

والعدد 43 مجموعة شعرية أولى كذلك « دفتر الحب والحلم » للشاعر الشاب الحبيب بن فضيله لكنها واعدة دون شك فى لبها لان بها طاقات مشحونة لم تنفجر بعد ولانها فى شكلها البرقى الخاطف الذى يقتصد عناء المطولات المملة تجذب الانتباه وتفتح باب الايحاء واسعا فسيحا .

أما عن المضمون والمحتوى فافضل أن أرجىء الحديث الى صدور محاولة ثانية قد تكون ادسم وأعمق وأوسع آفاقا .

محسن بن حميله

ندوة القراء

وردت علينا رسالة من صديقنا الدكتور محمد مصطفى هداره نكتفى بها وحدها لضيق المقام ونقتطف منها الفقرات الآتية :

« السيد الاستاذ البشير بن سلامه رئيس تحرير مجلة الفكر ،

تحية طيبة وبعد ،

فقد سعدت بقراءة عدد مجلة الفكر الصادر فى أكتوبر 1984 الذى احتفلتم فيه بمرور خمسين عاما على وفاة الشاعر المبدع أبى القاسم الشابى ، وقد استرعى نظرى مقال السيد ابى زيان السعدى (حول شاعرية الشابى) الذى سبق أن نشره منجما فى صحيفة (الرياض) التى تصدر بالمملكة العربية السعودية ... وقد قرأت مصادفة فى صحيفة (الرياض) ما سبق أن نشره فى مكان آخر • وقد قرأت مصادفة فى صحيفة (الرياض) حلقة من بحثه فى العدد الصادر فى 12 من رجب 1404 هـ ، وظننت أنها كل ما كتبه فى هذا الموضوع ، فرددت عليها ، ثم علمت أنه كان قد كتب حلقات أخرى فى هذا الموضوع تحت باب (مد وجزر) فى الصحيفة المذكورة ، لم يتح لى حظ الاطلاع عليها ، وهاندا أقرأها الآن متكاملة فى مجلة الفكر ...

وعلى أية حال أنا لا أرى فيما اطلعت عليه من مقال السيد أبى زيان ما يخرج عن اطار ردى عليه فى صحيفة الرياض الذى أتشرف بارسال صورة منه ، كما أتشرف بارسال صورة من مقالى الذى كتبته عن الشابى منذ أكثر من ربع قرن، ولم يصل الى علم السيد أبى زيان الا هذه الايام ، بيد انى اود ان أضيف الى ما سبق بعض الامور :

أولا : ان الشابى ليس ملكا لتونس بقدر ما هو ملك للعالم العربى كله ، ولا ينبغى أن يظن بباحث ينقده (التحامل) ، فهى لفظة بغيضة ودلالتها أكثر بغضا وقد تردد ذكرها فى مقال السيد أبى زيان ، الامر الذى يوحى بوجود نظرة ضيقة متعصبة اقليمية مقيتة ، وخاصة فى ميدان الادب والثقافة .

ثانيا : ان الشابى مات قبل ان تتاح له فرصة النضج الشاعرى ، ودراستنا له ينبغى ان تكون فى هذا الاطار ، وله تجارب أولية نفاها عن ديوانه ، والجرى وراءها الآن يشوه صورة الشابى ، واعتقد ان القصيدة التى نشرت فى المجلة فى رثاء الشيخ النخلى تهز بعنف شاعرية الشابى التى نعرفها فى نماذجه الرائعة التى كتبها حين بدأ فى النضج ، فهى — الى جانب ركاكة التعبير فيها وسذاجته — تتضمن بعض الاخطاء التى هى من شأن المبتدئين : ففى البيت

الثالث خطأ املائى (فالتبك) وصحته (فلتبك) ، وفى الرابع خطأ نحوى (حتى يصير الدمع أحمر قانى) وصحته (قانيا) ، والشطر الاول من البيت السادس عشر مكسور عروضيا ، وقد كان تعليق الكاتب الرصين أبى القاسم محمد كرو على القصيدة ونقده لها موضوعيا ، وفى الصميم ٠

ثالثا : ان نفى كلامى عن تأثر الشابى بشعراء المهاجر مع اعتراف السيد أبى زيان بأن الشابى أحادى اللغة ، وأنه كان (يقرأ لجبران خليل جبران ولشعراء المهجر بعامة) طعن فى غير مطعن ٠ ولست فى حاجة لاسترسال السيد أبى زيان فى الحديث عن ظهور الاتجاه الرومانسى فى أدبنا العربى الحديث، وعليه أن يتفضل بقراءة كتابى (تيارات الشعر العربى المعاصر فى السودان) ليعرف ما لم يعرفه فى هذا الموضوع ٠

رابعا : ان ملاحظة السيد أبى زيان تجاوزى عن تقديم نماذج من شعر الوطنية عند شعراء المهاجر وتساؤله (فهل جبران وزملاؤه تغنوا هذا الغناء بلنبان وسوريا) يدل على بعده عن معرفة شعر المهاجر ، وأرجو أن يتفضل بقراءة كتابى : (التجديد فى شعر المهجر) الذى صدر منذ أكثر من ثلاثين عاما، والذى كتبته وانا طالب لم أتجاوز العشرين ٠

خامسا : أما عن شك السيد أبى زيان فى ظهور فوزى المعلوف ــ الذى أثبت تأثر الشابى به ــ بعد أبى القاسم الشابى ، فهو شك ناتج عن تسهل فى المعرفة ، لان النتاج الشعرى لفوزى المعلوف ظهر فى العشرينيات ، وكانت وفاة فوزى المعلوف فى عام 1930 ، وفوزى غير اسكندر المعلوف ولد فى زحلة عام 1899 م وكان يتقن الفرنسية اتقانه للعربية ، وقد سافر الى البرازيل عام 1921 م ، وتوفى فيها ، وأرجو أن يتفضل السيد أبو زيان بقراءة كتاب البدوى الملثم (شاعر الطيارة) ليحيط علما بفوزى المعلوف ٠

وبعد فان مما يسعد الباحث أن يجد من يتعقبه ، ويضيف اليه ، ولكن لكى تتم هذه السعادة ، يتمنى الباحث أن يلتزم المتعقب الامانة فى عرض الأفكار وتحليلها والاحاطة الواعية بالموضوع ، والبعد عن الحماسة الزائفة ٠

وانى لعلى ثقة بأنكم سوف تتكرمون بنشر هذه الرسالة وردى السابق على السيد أبى زيان فى صحيفة الرياض ، ليكتمل ردى عليه فى مجلتكم الغراء التى اسهمت فى اثراء الفكر العربى سنوات طوالا ، وندعو الله أن يعيننا على اداء رسالتها والسلام عليكم ورحمة الله ٠

الاستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة
رئيس قسم اللغة العربية وآدابها
بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية

● **كتاب عام 1934 « حديث الفعل » أو حديث الخلود :**

● **السيد عبد المجيد التلاتلي هو أديب معروف واكب الحركة الثقافية منذ زمان وقد كتب أخيرا عرضا لكتاب : الاستاذ محمد مزالي «حديث الفعل» في جريدة الصباح بتاريخ 22 و 23 جانفي 1985 نورده تعميما للفائدة وقد قدمت جريدة الصباح الغراء مشكورة هذا المقال بالفقرة التالية :**

خلال عام 1984 صدرت مجموعة هامة من الكتب السياسية والتاريخية والاقتصادية والادبية وما الى ذلك ··· وصدر في نفس العام كتاب «حديث الفعل» للاستاذ محمد مزالي الوزير الاول ووزير الداخلية .. فكان بمثابة القمة الشاهقة وسط هذا الدفق من الكتب ·· وبسرعة هائلة ترددت اصداؤه في شتى انحاء العالم ··· وتتبعنا هذه الاصداء باهتمام بالغ فوجدناها كلها طافحة بالاشادة بمحمد مزالي الكاتب والمفكر والمحلل السياسي وفيما يلي اول دراسة عربية ضافية عن هذا الكتاب القيم ·· وهي من تحرير الزميل الكاتب والشاعر والاديب والناقد عبد المجيد التلاتلي ·· الذي قدم لنا هنا تحليلا شاملا كاملا علميا وأدبيا لهذا الكتاب الذي يستحق كل دراسة وامعان ·· والذي هو الآن بصدد التعريب ··

وفيما يلي مقال الاستاذ عبد المجيد التلاتلي :

« دأبت على عدم الاقدام على تحليل عمل قيم الا بعد قراءته بامعان وتأمل وبعد ترك فترة من الوقت تمر تنضج نظرتي فيها اليه وتختمر ·· ومثل هذا التأمل أمر ضروري خصوصا اذا ما أردنا توخي صرامة متزايدة ومطردة في الحكم وبالتالي الخروج باستنتاج يمكننا من تحديد الملامح الاساسية لذلك العمل ··

وفي رائعة «حديث الفعل» للاستاذ محمد مزالي نجد انفسنا امام دفق زاخر بالافكار والذكريات والرؤى الجذابة والصور المغرية والمثيرة للاندهاش المعجب

بما تضمنه ذلك الدفق من صدق وحساسية وصفاء واقتناع واقناع لا مثيل له ٠٠ ونكتشف تباعا وعلى نسق متواصل ومتصل كل هذه الثروة الباطنية والثراء الوجدانى الذى يتمتع بهما الكاتب ٠٠ ونلمس فى نهاية المطاف كامل العظمة التى مكنته من الانتصار على كل شىء ٠

فعلى امتداد هذا العمل المشوق والمكثف نلمس فى كل سطر وكل جملة ٠٠ وكل فقرة ٠٠ بكل احاسيسنا وحواسنا مدى اهمية المادة المطروحة علينا ٠٠ وندرك مدى تمازجها وتمخضها وتفاعلها ٠٠ وصدقها وحيويتها ٠٠

كيف لا يصل كل قارىء الى ادراك كل هذا ؟ وكل هذه المادة الزاخرة الفوارة المتدفقة انما هى ثمرة نشاط حياة كاملة تميزت بشكل أخص بالنضال الوطنى الباسل فى كل الظروف وكل الاجواء وبدون انقطاع ولا كلل ولا ملل ٠

شهادة مشهودة على مرحلة برمتها :

فهذه المادة تمثل من خلال كل ما نقرأ فى حديث الفعل شهادة مشهودة معيشة وملموسة لكل ما يتعلق بكفاح الشعب التونسى ونضال زعيمه الحبيب بورقيبة الذى يمثل بلا منازع احد كبار عمالقة التاريخ فى كل العصور ٠

ولقد عرفت انا كاتب هذه الاسطر ، ضراوة المعركة الملحمية تلك ٠٠ لاننى عشتها فى نفس مساحتها الزمنية الكاسحة والخانقة والتى بلغ فيها التعسف الاستعمارى اوجه وغاية غلوائه ٠٠ ولاننى ساهمت بقسطى وبكل ايمان واخلاص فى زعزعة ذلك الكابوس منذ صباى الاول ٠٠

يحدثنا الاستاذ محمد مزالى فى رائعته وبلهجة تتميز بالحماس العقلانى وبالحرارة الوجدانية الصادقة عن مدى حبه للغة العربية وللثقافة العربية الاسلامية ٠٠ ونفس هذه المشاعر هى التى دفعت به الى خوض المعركة الثقافية بتأسيس مجلة الفكر احدى اقدم واشهر المجلات الثقافية العربية ٠٠ وهى معركة لا تقل شرفا وبطولة عن المعركة السياسية فى تحرير الوطن وتحرير الفكر العربى التونسى فيه منمحاولات الهيمنة والاحتواء الغربية وغير الغربية.

ويثير «حديث الفعل» فى الوهلة الاولى رؤى بعيدة ٠٠ وذكريات باقية ٠٠ حية ٠٠ قشيبية على الدوام ٠٠ فاستعيد فى ذاكرتى بكل وضوح ملامح ذلك الطالب الشغوف بالمطالعة٠٠ المجتهد٠٠ المنكب على الكرع من مناهل الكتب٠٠ حتى بات صديق الكتب واليف مكتبة سوق العطارين ٠

لقد كان يأتى على الدوام .. وعلى الدوام كنت استشف لهب العبقرية متدفقا من نظراته ..

وعلى عتبة دار المعرفة تلك .. استقبلت على امتداد سبعة عشر عاما جموعا غفيرة من القراء والمطالعين .. من بينهم تتركب اليوم كامل النخبة الحالية فى بلادنا ..

وأذكر أننى رأيت من بين من مروا بدهاليز وأقبية المعرفة بتلك الدار رجال فكر آمنوا بالروح وبالعقل وتفرغوا للخوض فى هذا الغمار .. ورأيت غيرهم ممن كرسوا ايمانهم للمادة .. ولكنهم جميعا كانوا يتلاقون هناك ويتحلقون حول مكاتبهم .. بدون كراهية ولا حقد همهم الوحيد وغايتهم .. بلوغ آفاق تزهر فيها القلوب .. وتستقبلهم فى جنباتها تراتيل الفكر .. حيث ينعمون فيها بنسيان كل ما يفرق .. ويغمرهم الانتشاء .. فى تلك الاجواء .. ومع اولئك تشيدت تجربة الفردية وانبثقت خبرة الشمولية .. التى ارتسمت عليها ملامح المستقبل واشعت ومضات الامل .

ردح من الزمن .. فى هيكل المعرفة :

مرت سبعة عشر عاما فى رفقة الكتب وقرائها .. ومكننى هذا الردح من الزمن من استخلاص معنى وغاية هذه الكتب وهؤلاء القراء .. وقد استرعى احدهم بشكل خاص اهتمامى بما فى تعابير وجهه من جدية وشغف وملامح ارهاصات روحانية لقد كنت أرى محمد مزالى يعتنق بحزم ولهفة باقات وطاقات من الافلاك والكواكب فى سماء الفعل تلك ..

ومنذ ذلك الوقت البعيد رأيت فيه عظيما بين العظماء ..

ولفتت نظرى كذلك .. وقتها .. ضمن كوكبات من الاوانس التونسيات القلائل .. اللائى كن يأتين للانضمام لموكب بناة الافكار فى تلك الدار .. الآنسة فتحية المختار التى كانت ترافقها شقيقتها باستمرار .. وكان والدهما احيانا برفقتهما .. وشاءت المقادير ان ترتبط الآنسة فيما بعد .. بمؤلف «حديث الفعل» ويتحد مصيرهما .. ليصبح مصيرا واحدا ..

خلال كامل صفحات التأليف نحس ارادة الرجل وهى تعمل من اجل مجد وطنه .. ونلمس صدقا مطلقا مع التزام فكرى مخلص وعميق لهذا الوطن ..

... وعبر فقرات الكتاب .. اخذنا المؤلف معه في جولة باهرة خلال حياة كاملة من النضال عند محطات وأوقات تميزت بكثافة احداثها وشؤونها وشجونها .. فنلمس دفقا من المشاعر .. تمر كالاعصار .. مصورة خلجات ونبضات قلب لا يخفق الا بحب الوطن .. ولكن احسسنا وكاننا نلمس وجيب ذلك القلب .. في تلك المراحل والمواقف الفاصلة .. والمليئة بالاصرار والنضال والطموح .. باختصار كانت مراحل .. صورتها فقرات .. بشكل عارم كثيف آسر .. أخاذ بالاحاسيس والالباب .. وكنا نراها منطلقة من القلب للشفاه .. ومن القلب للقلم .. وبدون تمويه ولا تطرية .. وبفن نادر المثال .

يستطرد الاستاذ عبد المجيد التلاتلي الناقد والاديب والشاعر المعروف عرضه وتحليله لكتاب « حديث الفعل » للوزير الاول السيد محمد مزالي .. وهذا أهم ما جاء في الحلقة الثانية والاخيرة لعرضه لهذا الكتاب القيم :

المنستير لؤلؤة البحر الابيض المتوسط وارض التاريخ .. شهدت مولد عبقريتين سياسيتين : المجاهد الاكبر والرجل ذو النشاطات النبيلة المتعددة محمد مزالي .

في «حديث الفعل» درس الكاتب بلمسات فنية رقيقة مختلف مظاهر ومراحل وجوده الثرى بالاحداث والتجارب .. وسلط الاضواء على سلوكه المثير للاعجاب والتقدير عند المجابهة مع السلطة والسياسة والزمن والعمل والحرية والكرامة والرياضة والشباب واللغة الأم والمرأة والزواج ..

انه يجيل النظر في افق مصير الرجال بشمول وعمق .. فاذا به ملاحظ حاد النظرات وسابر للاغوار .. لا يكل .. ونجده دارسا للعلاقات بين الاجيال .. فاذا بنفس شغفه بكل المظاهر والظواهر والاشياء يغمره ويجرفه خصوصا اذا تعلق الشان باعز المواضيع لديه : الوطن والحرية ..

ثم يتناول بالدرس والتحليل كامل آليات السياسة وكامل مظاهر الادب والفلسفة وكل خصال الرياضة والحياة .. خلال كل ذلك نبهر ايما انبهار عندما نرى انه استخلص مبكرا ضرورة خص الاقتصاد بالاهتمام الاول ومعه وعلى نفس القدم والاهتمام المساواة الاخلاقية والحس الثقافي .. في عالم

ساده العنف وسيطرت عليه الحماقات ٠٠ حتى تعرض تناسقه وتوازنه لاكبر المخاطر ٠٠

هذه الخصال الجمة التى اكتشفتها فى الرجل من خلال مطالعة عمله الباهر «حديث الفعل» هى ذاتها الخصال التى املت على ـ كسافيي اوليس ـ هذه الجملة الواردة فى تقديمى لهذا الكتاب : «لقد كان الهدف هو الوصول الى تقديم صورة صادقة عن رجل يمارس وظائف تتعلق بمجموعة بشرية فى خصوصيتها التى لا تقهر ولا تغلب»

بصماته فى شتى الميادين :

وأضيف من ناحيتى كل هذا باعتبارى شهدت الرجل وهو ينجز عمله ان هذه البداهة تفرض نفسها بنفسها ٠٠ لان رؤى محمد مزالى المحتشدة تتحد ومنطق ارسطوطاليس من اجل التفتح الافريقى ٠٠ ٠

ان «حديث الفعل» هو ثمرة تجربة ناضجة وثابتة تواصلت على امتداد حياة كرست للنضال من اجل الكرامة والحرية والوطن وهو نضال واصله كل يوم وعاشه وتشبع به ٠٠ وترك بصماته فى كامل المجموعة التونسية التى كانت تبحث عن وحدة كيانها وجذورها ٠٠

وبقولنا «نضالا» أو «معركة» ونحن نتحدث عن نضال محمد مزالى فانما نعنى الفعل او العمل ٠٠ الذى تواصل دائما بواسطة الفكر والقول معا ٠٠ وعلينا ان نؤكد على هذا وان نحفظه ٠٠ اذ ليس من المؤكد دائما ان يتصرف رجل سلطة هو فى نفس الوقت رجل فكر على هذا النحو ٠٠ فالاولوية تمنح عادة لاحد هذين المظهرين ٠٠ وكأن الانسان يتنكر لجزء من ذاته ونفسه ٠

على العكس من الجميع استطاع محمد مزالى ان يبقى هو هو ٠٠ وان يحافظ على كامل جوهره ٠٠ اى ان يبقى رجل العقل والمفكر على امتداد حياته بصفته رجل عمل ورجل سياسة ٠٠ واستطاع ان يضع كامل فكره فى خدمة عمله وكامل فعله لخدمة فكره ٠

لقد وفق الى تحقيق ذلك كله باخلاص وشرف لا غبار عليهما ٠٠

فى مجلة ـ نوفل أوبسرفاتور ـ خصته جوزيت اليا بالتقدير والاشادة لنزاهته المعنوية والسياسية مبرزة هذه الجملة التى قالها امام التلفزة الفرنسية فى برنامج «7 على 7» : «وانى لأرفض وانا فى الحكم ان الطغ يـدى ٠٠ ان

الغاية لا تبرر الوسيلة ٠٠ وواجب على الانسان ان يحافظ على درجة عالية من الاخلاقية حتى وهو يحكم» ٠

ولم يتخل محمد مزالى عن هذه الاخلاقية على امتداد حياته كما لم يتخل عن اللازمة التى كانت على الدوام الخيط الموصل للفعل لديه ٠٠ والمتمثلة فى نضاله الدائم والدائب من اجل انبثاق ثقافة وطنية ٠٠ ولقد كتب فى هذا الموضوع يقول : «هنالك حقيقة تفرض نفسها علينا اولا وبالذات ٠٠ فى بلد هو بصدد تشييد مستقبله ٠٠ لا يمكن ان تكون الثقافة الا وطنية ٠٠ وهذه الثقافة فى تونس ترتكز على التجذر فى العالم العربى الاسلامى وعلى الاندراج فى محيط البحر المتوسط مع كل ما يتطلبه ذلك من ابراز وتأكيد الخصوصية التونسية» ٠

وقامت مجلة الفكر منذ عام 1955 بخدمة هذه الثقافة الوطنية خدمة مثالية ٠٠ وبتأسيس هذه المجلة والاشراف عليها اعطى محمد مزالى تونس اداة مثالية تنحت هذه الهوية الوطنية التى ما فتئت تنمو وتنبت عبر السنين مع بروز ادراك وطنى سليم وايجابى ٠

مثل هذا الوعى لا يمكن ان يولد الا فى المدارس والمعاهد وحركات الشباب ٠٠ حيث عبىء كل شىء من اجل انفتاح الافكار ومد الاجيال الصاعدة بغذاء يليق ببلد ذى تاريخ طويل زاخر ثرى ٠

عندما كان محمد مزالى ما زال استاذا شابا استطاع بعد ان يطبع جيلا بأكمله ٠٠ يتذكر من ذلك عزيز المحجوب الذى كتب عنه فى مجلة ــ جون أفريك ــ يقول : «يبقى محمد مزالى بالنسبة لقدماء تلاميذه بالمعهد الصادقى ٠٠ أستاذ الفلسفة الذى ساعدنا على اكتشاف هويتنا الوطنية وعلى انتسابنا للثقافة العربية الاسلامية ولهذه الامة العربية الاسلامية التى ما زال الجزء الاكبر منها وقتها خاضعا للاستعمار ٠٠ ان الامر بالنسبة لهذا الاستاذ الذى لم يكن كغيره من الاساتذة الاخرين لم يكن يتلخص فى تقديم دروس عن هذا الموضوع او ذاك ٠٠ وانما كان يعنى دعوتنا باطراد الى انماء ذكائنا وادراك مسؤولياتنا المستقبلة ٠٠ تجاه الارض التى بعثنا عليها ٠٠٠»

وتلتقى هذه الذكريات بالذكريات التى قدمها لنا محمد مزالى فى سيرته الذاتية وهى السيرة التى حيتها صحيحة ــ لوماتان دى بارى ــ بهذه الكلمات : «لقد اجاد محمد مزالى التعامل مع كسافيى أوليس متقبلا الحوار بصراحة ووضوح صارمين ٠٠ وآل هذا الحوار الطويل الذى غمره محمد مزالى بشغفه

وذلاقة لسانه الدافئة الى استعراض سيرته الشخصية ٠٠ وهى سيرة شخصية خالصة من كل العقبات المتواجدة حتما فى مثل هذا الحال ٠٠ وبفضل تلك السيرة تمكنا من التعرض للعديد من المشاكل المشتركة بين البلدان السائرة فى طريق النمو ٠٠ من خلال كبريات مراحل الرجل الذى اكتشفنا فيه محدثا وقاصا رائعا ٠

ويا لها من اشادة أيضا بالرجل تلك التى قدمها الاكاديمى موريس دروون – فى مجلة – العالمين – والتى تنال المغرب والعالم العربى من خلال محمد مزالى .. وهذه فقرة مما كتبه « قال لى الرئيس بومبيدو ذات يوم .. كلما سرت فى الحياة ٠٠ ازددت يقينا ان رجال الادب هم انسب الناس للحكم ٠٠ » قال لى ذلك قبل أيام من وفاته فى آخر لقاء لى معه » .

«وقرأت مؤخرا كتاب السيد محمد مزالى وزير تونس الاول والذى اسماه «حديث الفعل» فذكرنى بما كان قاله لى الرئيس بومبيدو اذ انه كان احسن تجسيد لما كان قاله لى الرئيس الفرنسى الراحل» ٠

ومما يلفت النظر بشكل خاص فى شهادة هذا الاكاديمى الكبير قوله «ان السيد محمد مزالى كان اديبا وسيبقى كذلك ولقد أعد فكره لكى يسيطر على كل مشكلة ، وطريقة تفكيره تتكيف مع كل وضعية ما دامت الامة هى همه الدائم لانها تمثل الشرط الاول لكل عمل جماهيرى ولان الانسان هو غاية هذا العمل » .

ولقد اكتشفنا بالفعل فى محمد مزالى قاصا عجيبا على امتداد الفقرات التسع التى تكون كتابه وخاصة فى «خبات الامل» حيث تحدث عن طفولته المتواضعة فى ظل أسوار المنستير ٠٠ هذه المدينة البحر اوسطية التى تهدهدها النسمات البحرية بلا تعب ولا ملل ٠

منذ ذلك العهد المبكر بدأ الطفل يتعلم الحياة ٠٠ وبدأت صلته بالمدرسة وبالعمل الحضارى وبالشعور بالبؤس الذى كان يخيم قبل الحرب العالمية الثانية ٠

بازاء كل هذا ٠٠ كانت تلك الفترة هى التى بدأ فيها الطفل ٠٠ والشاب فيما بعد يتأثر بالزعيم بورقيبة ٠٠

كتب مزالى عن تلك المرحلة يقول : « كنت فى ذلك الوقت متعلقا بالرجل أكثر من تعلقى بالفكرة ومنذ مراهقتى كان بورقيبة بالنسبة لى مثال المجاهد الذى لا يكل ... ونموذج الوطنى الصادق الغيور والخطيب البارع المفوه .. »

و «حبات الامل» هي أيضا الذكريات المرتبطة بالدراسة الثانوية في الصادقية واللقاء مع الاستاذ الكبير محمود المسعدي ·· وهي كذلك سهرات ومهرجانات باب سويقة ·· والحماس للرياضة ··

يقول محمد مزالي : «لقد اهتممت كثيرا باللعب ذاته أكثر من اهتمامي بالرهان ·· بالخصال المعنوية وطريقة تعامل اللاعبين الاتيقة اكثر من اهتمامي بقدراتهم الجسدية أو النتائج الغنية .. لقد كنت أحس رغم صغر سني ان المقابلات الرياضية يجب ان تطبع الشبان بالروح «الفريقية» وبالولاء واحترام قانون اللعب» ·

السياسي .. الرياضي .. توازن واتزان :

عندما نقرأ هذه الاسطر نفهم المسار الذى أخذ محمد مزالي حتى مارس الوظائف العليا في صلب اللجنة الاولمبية الدولية ··

الواقع ان «حبات الامل» تلخص كل «عمليات البذر» التي تمخضت عن هذا الحصاد الزاخر الفكرى والسياسى الذى يجنيه اليوم محمد مزالي ناضجا صرفا زكيا ·

وتوصلنا «حبات الامل» الى «مرآة سقراط» اى الى مرحلة دراسة الفلسفة بالسوربون والى كامل النشاط الفكرى المتدفق في قلب الحى اللاتيني ··

الى جانب ذلك كله حافظ محمد مزالي على الوشائج التي تربطه بوطنه ·· واندرج تدريجيا في النضال الوطنى وفي النضال من اجل تحرير وتطوير المرأة المسلمة ···

خلال تلك الحقبة صحا قلبه على تقدير وحب الفتاة التونسية التي كانت طالبة فلسفة معه على طريق مثل أعلى مشترك ·

وبدأ هذا المثل الاعلى يتحقق خلال الفترة التي سماها «الاعمال والايام» وكانت فترة العودة الى ارض الوطن وكان مجازا في الفلسفة ·· وكانت سنوات تعليمه الاولى ·· ولقد حيى ـ بول بالتا ـ في لوموند «حديث الفعل» فأكد أن محمد مزالي كان يشتكي «وله الحق في ذلك» من انه في السوربون يمر الطالب مباشرة من الفلسفة الاغريقية الى فلسفة القرون الوسطى مما يدل على تجاهل كامل للعطاء العربي الهائل في هذا المجال في حين ان العالم العربي بتوليه نقل المعرفة الاغريقية والهندية وباضافته اليها بحوثه ومعارفه الخاصة ضمن الربط والوصل بين العصور العتيقة وعصر النهضة ويضيف بول بالتا قائلا : «ولقد نجح محمد مزالي بشكل اخاذ عندما قدم في صفحات معدودة

ملامح وروائع هذه الفلسفة العربية المتجاهلة فى أوربا ٠٠ وهذه الفقرة فى كتاب «حديث الفعل» نود لو يقرأها متفقدو التعليم المكلفون باعداد البرامج التعليمية فى فرنسا» ٠

وفى خط متواز مع نشاطاته كرجل تربية وتعليم ناضل محمد مزالى بشكل نشيط فى صلب العائلة الدستورية ٠٠ كتب عن ذلك يقول : «اننا كنا نحس ان الاستقلال آت لا ريب فيه من قبل ان يصبح هذا الاستقلال حقيقة ومن قبل ان يتم الاعلان عن الدولة التونسية ذات السيادة وكنا نعرف تمام المعرفة انه يجب علينا الا ننسى ان تطورنا لا يمثل هدفا فى حد ذاته ولا تحقيقا لحلم يجب الوقوف عنده• ذلك لان معركة أخرى، ربما ستكون اصعب، تنتظرنا: وهى معركة تشييد الدولة والحفاظ على مكاسب الاستقلال وارتياد مدرسة الديمقراطية .وان ننكب على الانتاج بازدياد باطراد لنتمكن من توزيع عادل للمداخيل ٠٠ عندما وجدت نفسى ذات صباح على رصيف حلق الوادى ٠٠ يوم غرة جوان 1955 ٠٠ منتظرا عودة الرئيس بورقيبة بحماس وتأثر مع عشرات الآلاف من المواطنين كنت احس ان المعركة ستكون اكثر صعوبة ٠٠ لانها معركة سوف لن تكون ضد الاجانب كما كانت وانما ستكون لاستئصال شياطينا الذاتية .وازالة نزعاتنا القبلية وبناء دولة والاقلاع عن تفسير صعابنا بنسبة اسبابها للغير ٠٠ وكنت أدرك مدى روعة تحمل المصير وكذلك مدى ثقل تلك المسؤولية» ٠

ابتداء من 1956 اقتحم محمد مزالى بصفة حقيقية الحياة العامة عندما عين رئيسا لديوان وزير التربية القومية الى جانب ذلك ظل ينفق كامل جهوده فى مجلة «الفكر» التى تمثل كما قال هو ذاته : «شهادة اخلاص مناضل الى جانب كونها مبادرة ثقافية» ٠

ثم عين مديرا للشباب والرياضة حيث مارس ما اسماه بـ «اغراءات اولمبية» أثر ذلك فى عام 1964 تولى مهمة الادارة العامة للاذاعة والتلفزة التونسية ٠٠ وانها لمسؤولية ضخمة عندما نفكر فى مدى تأثير الخبر السليم والموضوعى على الشعب ٠٠ فوق ذلك فان الاعلام يمثل كذلك فى بلد سائر فى طريق النمو طريقة ووسيلة بيداغوجية ممتازة ٠

ثم توالت المناصب الهامة ٠٠ فمن وزير للدفاع الى وزير للتربية القومية الى وزير للصحة العمومية ٠٠ وعلى امتداد تلك الحقبة بأكملها واصل محمد مزالى عمله بكل حماس وإيمان لتطوير بلاده والمساهمة فى نهضتها ٠

في ميدان سياسته الصحية ٠٠ كان محرك المجهود الضخم الذى بذل «قصد ادماج النشاطات الوقائية والتربية الصحية في العمل العلاجي» على نحو يحمل من الصحة العمومية «عنصرا اساسيا في التطور الاجتماعي» الا انه يجدر التأكيد بالخصوص على التخطيط العائلي الذى كرس محمد مزالي له جهودا فائقة وبحماس مثالي مدعوما بمساندة الرئيس بورقيبة ٠٠ الذى كما قال محمد مزالي : «اعتبر هذه المعركة بمثابة معركة مصيرية ضد التخلف ومعركة من اجل انبعاث تونس ونهضتها ومعركة من اجل الكرامة الانسانية» ٠

في فقرة «بذور الفكر» تحدث محمد مزالي عن الاصلاحات التي خصص لها اساس نشاطه كوزير للتربية القومية وخاصة حملة التعريب ٠٠ كتب في هذا الموضوع يقول : « كنت أود ان تنتهي غربة اللغة العربية في بلادها وأن لا تظل منكمشة في تربتها ٠٠ »

ثم منذ يوم 23 افريل 1980 استلم محمد مزالي مهمة الوزير الاول الثقيلة الجليلة ٠٠ وبهذا الاختيار نلمس مدى ثقة الرئيس بورقيبة واعتماده على رجل تكون في مدرسته وتميز بالكفاءة والوفاء والاستقامة والاخلاص ٠٠ لهذا كله لا يمكن الا ان يصطفيه المجاهد الاكبر ويتوسم فيه خير مواصل لاختياراته السياسية الكبرى ٠

هذه التجربة في منصب وزير اول شرحها محمد مزالي في فقرة «دروب العمل» ٠٠ حيث تحدث عن ممارسة السلطة في تونس وكذلك عن الحوار بين الشمال والجنوب وعن المكان الذى تحتله البلاد التونسية في العالم وعن علاقاتها مع مختلف الدول ٠٠

في هذه الفقرة الهامة أبرز محمد مزالي ان انتصاب مقر الجامعة العربية بتونس وهو الاختيار الذى كرس تونس «كدولة محبة للسلام وكامة شغوفة بالعدالة وكشعب متعلق بالحرية وكارض حوار» ونوه محمد مزالي في هذا الفصل ايضا في مجرى حديثه عن سياسة تونس بـ «هذا الاستقرار المثير للاعجاب الذى تتمتع به البلاد وهو استقرار يرتكز على منطق الحق وعلى قاعدة المساندة الشعبية وعلى عبقرية الرئيس بورقيبة اكثر من ارتكازه على ذوى الخطى العسكرية او الخوف من الهراوة» ٠

ومن اروع ما جاء في هذا السجل القيم هذا الاعتراف : «لا اعرف هل ان غدا سيكون متركبا من كل ما اتمناه ٠٠٠ وهل ان دورة الايام ستمكننا من تحقيق كل ما يبدو لنا ضروريا منذ امد بعيد ٠٠ الا انه مهما حصل ٠٠ فانه يبقى لي الرضى العميق عن نفسي ٠٠ لانني تكلمت لاقنع واشرح ٠٠ لما فيه

الصالح العام ٠٠ ولانني تصرفت وعملت في خدمة الامة بالنضال المتواصل والمجهود المخلص ٠٠ واني لاشعر بالراحة ٠٠ لانه لا يوجد اى شيء فيما عملت وحفلت كان يرمى للاساءة للغير او بدافع الاحتقار للبشر ٠٠ واني كنت أشعر دائما بأني أساهم في عمل بشرى ٠٠ وأتحمل عبء مصير البشر ٠٠ وأتعامل مع الآخرين ٠٠ مع ادراكي على الدوام لهذه الحقيقة العميقة : الانسان يكون تارة كبيرا الى ما لا نهاية له وطورا صغيرا لا متناهيا في صغره .. وهو ليس بالملاك ولا بالوحش ٠٠ ولان الخطأ أمر بشرى ٠٠ حصل لى ان اخطأت وان ارتكبت هفوات .. ولكن حسن نيتي .. سيكون شفيعي » .

ثم توجه للشباب ٠٠ الذين سيستلمون ذات يوم مسؤولية تحمل المشعل الخطيرة داعيا لهم مهيبا راجيا «اتمنى لهم ان يبذلوا جهدهم ، باستمرار ، لتوخى الحذر من المشككين والمضللين ٠٠ وان يتفادوا التقتير بجهودهم حسب حسابات فوائدهم الشخصية والا يكيفوا نشاطهم طبقا لقيمة الجزاء الذى يتلقونه ٠٠ وارجو لهم بالخصوص ان ينزعوا عنهم التخاذل والاستسلام للمقادير ٠٠ وان يبذلوا قصارى ما لديهم من جهود وعزائم وان يشعروا بأنهم مسؤولون عن اعمالهم ومصائرهم ووجودهم في هذا العالم ٠٠ واتمنى لهم اخيرا في علاقاتهم مع غيرهم ان يرتقوا الى درجة نبذ الحقد ٠٠ الذى هو غضب الضعفاء ٠٠٠»

على هذا الاستنتاج لا نزيد ولا يمكن ان نضيف اى شيء ٠٠ فهو افصح وابلغ من كل ما يمكن ان يقال ٠٠ اذ ان كل كلمة فيه تنضح ثراء وحكمة وانسانية ٠٠ تستوجب تأملنا وتستحق اعجابنا ٠

● **الاحتفال بصدور كتاب : « مزالي ... الاصالة » :**

فى احدى قاعات نزل هيلتون بالعاصمة اجتمع شمل رجال الادب والصحافة والسياسة فانصهرت الرؤى وتعانقت الافكار لنحتفل بقادم جديد في حقل الابداع ٠٠٠ اتخذ من مسيرة الاستاذ محمد مزالي وروحه ، أفكاره وأحلامه ، مادة شاملة ومثيرة ٠٠٠ «مزالي ٠٠٠ الاصالة» تأليف منهجي أبحر عبر تجاويف مزالي الانسان ٠٠٠ مزالي الفكر ٠٠٠ مزالي الانتماء ٠٠٠ ومزالي الوفاء ٠٠٠ ومزالي الحلم ٠٠٠ وضعه بحنكة المتخصص ٠٠٠ ومنهجية الباحث الاستاذ المنصف القيطوني المقيم بكندا ... بهذه المناسبة التى طبعت النصف الاول من المساحة الزمنية ليوم الثالث من شهر جانفي 1985 ٠٠٠ تكلم الاستاذ محمد مزالي ليعبر عن تأثره البالغ بان يكون محل الاحتفاء مؤكدا بالخصوص أن تفكيره يتجه أساسا الى الوطن عندما يحدث أن يكون ما يكتبه أو ما يقوله .

او ما يقوم به محل عناية أو أن يثير شيئا من الاهتمام ذلك أنه تعلم انطلاقا من حوار عميق ومتواصل الحلقات مع جذور شعبه أن يتجذر وان يكافح بكل قواه ضد كل مظاهر الانبتات الثقافي واضاف يقول ان الوطنية هي العقل المتيقظ على الدوام والتحلي بالشجاعة في ممارسة شؤون الحياة اليومية وتحدي العقبات وهي كذلك الايمان الذي لا يتزعزع بمصير الامة . وأن عظمة الامم تكمن في ايجاد توازن متجدد دوما بين التعبير المتعقل لما تقتضيه سلطة الدولة وبين الممارسة المسؤولة للحريات وقد وزعت دار «سروه» الكندية للنشر التي اقامت هذا الحفل بالاشتراك مع الشركة التونسية للتوزيع ، بلاغا صحفيا استعرضت فيه النجاح الذي ناله الكتاب خارج الحدود وخاصة في كندا واوربا ، وقد أشادت السيدة اندري دوبون ممثلة الدار الكندية الناشرة للكتاب بهذا التاليف القيم مشيرة الى أن واضعه الاستاذ المنصف القيطوني قد تلقى العديد من رسائل الاعجاب الصادرة عن شخصيات فكرية وسياسية واجتماعية اوربية وكندية ... وتحدث السيد صلاح الدين بن حميده الرئيس المدير العام للشركة التونسية للتوزيع فقال بالخصوص : « إن القارىء باستطاعته التعرف أكثر على شخصية الاستاذ محمد مزالي والدور النضالي المتواصل الذي يقوم به الى جانب المجاهد الاكبر من خلال هذا التاليف » .

كما تطرقت السيدة سولانج ديلورم الى المعاني السامية التي حواها الكتاب ومنها بالخصوص مفهوم الفعل عند محمد مزالي وارتباطه الوثيق بالاصالة التي طبعت المنهج البورقيبي ... أما المؤلف فقد أبرز أن الهدف من هذا الكتاب يكمن في الاجابة عن أسئلة القراء الاجانب .. مبرزا أهمية ردود الفعل التي وردت بعد صدور الكتاب وخاصة المتعلقة منها بالانبهار بشخصيتي الرئيس الحبيب بورقيبة وابنه الوفي محمد مزالي ... وفي ختام الحفل وقع السيد محمد مزالي على الكتب المهداة الى الحاضرين وتسلم اللوحة التي رسمت على الغلاف هدية من الناشر .

● **حفل على شرف وزير الشؤون الثقافية التونسي بالسعودية :**

هذه كلمة السيد محمد شكيب الأموي في الحفل الذي اقامه سعادة سفير الجمهورية التونسية الاستاذ قاسم بوسنينة على شرف السيد البشير بن سلامة وزير الشؤون الثقافية .

اخواني ،

عندما كان الاستاذ الشاذلي القليبي وزيرا للشؤون الثقافية ، دعانا السفير العظيم موسى الرويسي لزيارة تونس ،

كنت وعائلتي ، ومشينا في طول البلاد وعرضها ، وفي كل بلد نحل بها ، كنا ندعى لحفلة «كلام» وفي كل بلدة كنا نجد قائمة طويلة عريضة ، يمكن استعمالها للتمثيل ، كما يمكن استعمالها لمناسبات الاحتفالات في أي لـون وفي المنصة كنا نتكلم في الادب ، تارة ، وفي التاريخ ، والسياسية ، والقاسم المشترك الاعظم في كل مناسبة كهذه وكغيرها ، يكون الحديث عن فلسطين، وبعد كلامنا ، تبدأ الاسئلة والخطابات من شبان وشابات ، ومعظمهم تلاميذ جامعات بجراة ، وحماس ، وفهم وادراك لكل قضية عربية ، وبعفوية ووضوح وصراحة مميزة ،

ودخلنا المكتبة العامة في العاصمة ، وعلى كل مائدة كان كـل اثنيـن او اثنتين يدرسان في ما امامهما من كتب ، بتفكير ، ودراسة واعيـة ، وأمـا الكتب النفيسة ، فكانت في حرز حريز ، في مكان مأمون مضمون ، كتب التراث ، والتاريخ والكتب النادرة ٠

وأجمل ما رأينا ، على منصة تصعد اليها بدرجات ثلاث ، مكتبة الصغـار وأشهد اننا وجدنا ما بين سن الرابعة والعاشرة ، متحلقين حـول موائـد واطئة ، وكل يلتهم ما في تلك الكتب ، دون ان يلتفت الينا او الى اي مقتحم متجرىء على وحدة وصفاء ذهن هؤلاء الاطفال ، ولا حتى ابتسامة ، أو أهـلا وسهلا ، أو العوافي يا جماعة ، ولا حتى الاهتمام بالتعرف على وجوه القادمين من كانوا فليكونوا ٠٠

أعجبنا هذا الاستغراق ، هذا التفكير العميق ، في أطفال من المفروض فيهم أن يقضوا أوقات فراغهم ، في اللعب والتسلية ، ومعـاكسة بعضهم بعضا ، حتى ولو كانت النظرية التي تقول : ان اللعب للاطفال ضرورة ، ولكن وقت الجد جد ، ووقت اللعب للعب ، والنظرية اليابانية الحديثة هي حشو المعرفة في الطفل منذ السنين الاولى لولادته ، وبالا يحصل ، حتى يطلع على القمر ٠

وكانت خاتمة المطاف ، نادي العروس المطوى نادي القصة ، شبابا وشابات كلهم آذان مفتحة للنقد ، واستيعاب كل كلمة في كل قصة تقال لهم كما يقال : يفتشون النملة ، وكان العروسي المطوى كالنمر الراقد ، يتأمل ويتيح الكلام لجميع الحاضرين والمناقشين ، وفي النتيجة ، يحلل ، ويدقق ويرجح، وينال التصفيق ، ولم يكن حظنا في نادي خالد بن الوليد ، بأسعد حظا من تلك الجولات ، والمنتديات ، والله يا سيدي ، طرح كل حاضر ما في جعبته من انتقادات ، وأسئلة محرجة ، ولم تنلنا والحمد لله جراح ، ولا طعون بل كنا نتحرج من كل محاورة ومداورة ، وتنكيش ، بالتلاقي والتصافي ، والتفاهم

فأهل تونس من أرق خلق الله طرا ، أهل تونس من أدمث عباد الله على الارض أهل تونس يغرقونك بأدبهم ولطفهم وظرفهم ، وايناسهم ، هم خلاصة الجنتلمانية على الارض ، وأمامكم أمثلة رائعة من كل سفير ، وملحق ، وابن قارة والجمالي ، وعلى رأسهم سفير مثالي الخلق والفهم والادراك ، وعلى رأسهم الوزير الضيف ، وزير الثقافة والادب ، والعلم والمعرفة ، والذوق واللطف ، والايناس ، ان كل من يأتي لهذا البلد الكريم ليمتن أواصر القربى ، وعلى رأس هذه القربى العلم ، هو رسول محبة ، وموضع تقدير وهو بين أهله وفي العيون ، تكلمت كثيرا ، ولكنه قليل بالواقع ، فمجال القول في تونس أوسع بكثير من هذه الكلمات فمعذرة ، واذا كان لا يجتمع اثنان الا وفلسطين ثالثهم ، واذا كان التمزق ، والحبال تشد أطراف فلسطين ، وباسم فلسطين، ومن أجل فلسطين ، من كل ناحية وداهية ، فلن أستسلم ما حييت ، سينبت جيل أصدق ، وأفهم ، وأكثر سخاء بالدم ، وأكثر حيلة وادراكا وواقعية ، ومرونة وبذلا ، لينقذ القدس والمسجد الاقصى ،

قسما بالذرى وبالمسجد الاقصى وبالقدس بالتراب النضيد.
قسما بالكروم وارفة الظل ، بالتين والليمون والعنقود .
قسما بالسنابل البكر تشدو في قرانا باغنيات الحصيد .
ما ركنا يوما الى الالم المضني ولا للخمول ، لا للجمود .
أمتي ، يا بلادنا ، منبت العز واصل الدلا وفخر الوجود .
هي في كل بقعة من بقاع الارض ثار على العدو اللدود .
يا بلادي ، ويا فلسطين انا سنلاقيك يا مهد كل الجدود .

● **ندوة تسويق الكتاب الثقافي وتوزيعه ببلدان المغرب العربي الكبير :**

«اضافة الى أنه ظاهرة ثقافية ، يعتبر الكتاب منتوجا اقتصاديا يقوم بدور هام في الاقتصاد الوطني سيما اذا احكمت عملية انتاجه وتسويقه» بهذا المفهوم الشمولي العميق لدور الكتاب افتتح السيد البشير بن سلامة ، وزير الشؤون الثقافية في الرابع عشر من شهر جانفي 1985 بنزل البلفيدير بالعاصمة أشغال ندوة تسويق الكتاب الثقافي وتوزيعه ببلدان المغرب العربي الكبير التي نظمتها وزارة الشؤون الثقافية بالتعاون مع منظمة اليونسكو وذلك تنفيذا لتوصية صادرة عن الاجتماع الاستشاري للخبراء العرب في مجال الكتاب المنعقد في السابع والعشرين من شهر أفريل 1984 بتونس .. وتواصلت أشغال هذه الندوة الى حدود اليوم العشرين من شهر جانفي 1985 .

● **التعاون الثقافى بين تونس والجزائر :**

أقام فى تونس فى الفترة الفاصلة بين الواحد والعشرين والخامس والعشرين من شهر جانفى 1985 السيد عبد المجيد مزيان وزير الثقافة والسياحة بالجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية ، وقد اكد السيد عبد المجيد مزيان عند حلوله بتونس ان البلدين قد « اجتازا مرحلة الاخوة النظرية وبلغا مرحلة التعاون البناء والملموس » .

وتم بهذه المناسبة توقيع محضر جلسة برنامج التعاون الثقافى لسنتى 1985 و 1986 مع العلم وأن البرنامج السابق قد نفذ بحذافيره حيث وصلت عمليات التبادل الثقافى بين تونس والجزائر فى اطار هذا البرنامج الى حدود العشرين عملية .

● **بنك المعطيات الثقافية :**

«تونس مدعوة الى مسايرة نهضة هذا العصر ، وانتهاج طريق الاعلامية ان هى أرادت تدارك الفارق بينها وبين الدول المتقدمة » بهذا الاصرار القوى افتتح السيد البشير بن سلامة الندوة التى انعقدت فى بداية شهر جانفى 1985 حول مشروع بعث بنك للمعطيات الثقافية ، الذى قدرت تكاليفه لمدة ثلاث سنوات بست مائة ألف دينار . وقد حضر هذا الافتتاح السيد الحبيب بورقيبة الابن المستشار الخاص لرئيس الجمهورية . المشروع فى حد ذاته لبنة أخرى على طريق تدعيم الهياكل الثقافية الثابتة قصد وضع الثقافة فى مسارها الاصلى باعتبارها من أهم محركات النهوض بالانسان والمجتمع .

● **بين الثقافة والسياحة :**

تطبيقا لمفهوم التنمية الشاملة وانصهار كافة القطاعات فى اطار تنموى واحد أشرف السيدان البشير بن سلامة ، وزير الشؤون الثقافية وعز الدين شلبى وزير السياحة والصناعات التقليدية صباح الثانى عشر من شهر جانفى 1985 على اشغال لجنة مشتركة خصصت جلستها التحضيرية لضبط آفاق التعاون بين الوزارتين على أساس اعداد برنامج عمل مشترك .

وقد اسفرت الجلسة التحضيرية على تقديم بعض المقترحات الهامة تتعلق أساسا بضرورة التنسيق بين الوزارتين للتعريف بمقومات الثقافة التونسية وخصوصياتها الاصيلة لفائدة القادمين الى تونس .